الفصل التاسع

الأفلاج

١- الطريق:

كان أعلى موقع تتجمع فيه الأمطار يبعد نحواً من ثلاثة أميال جنوب المكان الذي خيمنا فيه للقيلولة، وكانت تجري وتحيط به بين الشرق والغرب؛ بين طرفيْ البياض وطويق حوافٌ صخرية خفيضة لكنها محدودة المعالم، وبذا كان يشكل حاجزاً طبيعياً بين مرتفعات انصلح الوعرة وسهل ظهرة الرجد الصحراوي الممهد، ثم ينحدر إلى أسفل بلطف شديد نحو سهل الأفلاج. وأنا الآن على ارتفاع ٢٣٠٠ قدم فوق سطح البحر، و٤٠٠ قدم فوق الرياض التي كنا نقع جنوبها، و٩٠٠ قدم فوق اليمامة، قياساً على أدنى منخفض في سهل الخرج. وكان ارتقاؤنا من ذلك المنخفض تدريجياً وغيرَ مدركٍ بالحس، ولكنه تدرج مستمر.

ولكن شعيب الخبي كان آخر الأودية المتجهة نحو الشمال وآخر روافد العقيمي من ناحية الجنوب، وكان علينا ابتداءً من الآن الهبوط في طريق يتجه جنوباً، لتقاطع مسارنا المجاري المائية القادمة من طويق متحنيةً في الاتجاه نفسه في طريقها لصحراء البياض. ولاح لنا هذا القفر على يسارنا على البعد باهتَ الصورة كشطٍّ خفيض يتجه نحو الجنوب من المعلم المعروف خشم المشاش، ونظراً لمظهره الخادع - إذ يبدو أكثر ارتفاعاً مما هو عليه في الحقيقة - فإنهم يسمونه الحقاف أو الصخرة. وعند سماعي لهذا الاسم لأول مرة أثار فيَّ تساؤلاتٍ عن تلك الأصقاع الرملية الغامضة البديعة التي تظهر في معظم خرائط الجزيرة العربية والتي وصفتها

كثير من الأعمال الجغـرافية الخاصة بالإقليم تحت اسم الأحقاف[1]. إن التشابه أو في الحقيقة التطابق بين الاسمين - إذ أن العرب المعاصرين ينطقون الاسمين حقاف - أوحى إليّ للحظةٍ أنني كنت أنظر للتلال الرمليـة الأولى للربع الخالي، ولكن ما لبث هذا الوهم أن تبدّد بعـد أن أوضح لي الرفاق أنهم يطلقـون ذلك الاسم فقط على الصخرة الظاهرة أو الحافة الخارجيـة للسهل الواسع المسمى البياض، وهو قفرٌ أرضُهُ ثابتة ومسطحة وتغطيها الحصباء وتُشبه ظهرة الرجد رغم أنها تفوقها كثيراً في المساحة. لم يكن لرفاقي علم بالأصقاع الرمـلية التي تحدثت عنها حتى جابر المرّي الذي كان يـعرف الصحـراء الرملية العـظيمة وأجـزاء كثـيرة منهـا مثل الجـافورة وخيران، ولكنه لم يسمع قط باسم الأحقاف.

كانت الحرارة مرتفعة أثناء الساعة الأولى بعد التوقف، وسجل مقياس الحرارة في خيمتي ١٠٦° فهرنهايت عند الظهر، ولكن بعد ذلك هبّت ريحٌ شمالية عاصفة لطّفت الجـو، وهبطت القراءة في مـقياس الحـرارة لتبلغ ١٠٠° فـهرنهايـت عندما واصلنا المسير في الساعـة الثالثة عصراً. كانت تخط المرتفـعات الحارقة خطوط من الحصباء السـوداء هنا وهناك، وكان المكان يعجّ بمجموعات كـبيرة من الضب وهو نوع غريب من السحالي المصفحة ثقيـل الجسم ولكن سرعته مدهشة. وكانت هذه الحـيوانات عند رؤيتـها لنا وهي تـرقد تحت الشـمس، تسرع كـالبرق للاحـتمـاء

(١) هناك سورة في الجزء السـادس والعشرين من القرآن باسم الأحقـاف، وهو إقليم كان يحمل ذلك الاسم في مملكة عاد في الجنوب الغـربي من الجزيرة العربية التي أهـلكها الله بارتكابهم المعاصي بعد أن امـتنعوا عن الاستجـابة لتحذيرات النبي هود. (انظر الحاشيـة صفحة ١٤٤). ويوضح سيل (في صـفحة ٤٠٦) معنى الاسم كـالآتي: «الأحقاف هي جـمع حقف وتعني الرمال التي تتـراكم بطريقة ملتوية أو لولبـية، وهكذا فهو اسم لموقع في إقليم حضرموت حيث عاش قوم عاد». (المؤلف).

بالدهاليز الأرضية التي يعيشون فيها. والضب الحكيم هو الذي لا يغامر بالابتعاد عن جحره أكثر من أقدام قليلة ليسرع إليه عند رؤية أي عدوّ محتمل وعند أول إنذار. لكن أحدهم كان أكثر جرأة ؟أو أقل حرصاً من رفاقه فمتعنا بمشهد مطاردةٍ مثيرة كلفته حياته، إذ أن محمداً عندما رآه بعيداً عن أي ساتر في أرض فسيحة قفز عن سرجه لمطاردته بينما حاول الضب الهروب. وبدأ الضب بداية جيدة إذ كانت له مزيّة معرفة موقع جحره، وكان محمد قد صمم على الإيقاع به. كانت المعركة في بدايتها واستخدم الحيوان الصغير كل الحيل اليائسة مغيراً اتجاهه، ومتخذاً مساراً متعرجاً، ودار حول مطارده ببراعة تدعو للإعجاب. وكانت له مزية أخرى، إذ أن المهاجم الذي يمسك بهذه الحيوانات بطريقة غير حذرة يتعرض لعضات عنيفة تخشاها العرب كثيراً، ولكنه فقد إحساسه بالاتجاهات، وفي النهاية وبعد فاصل من الصراع سقط ضحية للمناورات الباهرة لمحمد الذي أمسك به مسكةً آمنة من وراء الكتفين، وعاد به منتصراً لنراه قبل أن تريحه السكين من العذاب. كان طول هذا الضب أكثر من قدم ويصنفونه جضا أي له سنتان من العمر، وهو خير أعمارها طعام للإنسان، ورأيت بعض عينات من الضب بلغ طولها قدمين وجسمه يناسب ذلك الطول، وهو في العادة يتبع إلى جحره ثم يستخرج منه، وتعده العرب طعاماً مترفاً لا يقل عن الدواجن. ولكن ليس هناك في رأيي ما يبرر هذا التقييم والمكانة إذ أن اللحم الموجود بذنبه الشائك (العكرة) والذي يعدونه أجود مذاقاً من بقية الجسم له طعم «سمكي يكاد أن يكون غير مستساغ».

اكتمل محصول صيدنا بجربوع استُخرج بعد حفر جحره، وطائر طهيوج تم الحصول عليه في ظروف غريبة. وكان أربعة من هذه الطيور يطعمون بالقرب من

طريقنا عندما اقتربنا منهم، ولعلَّ بُطأهم وثقلهم لم يسمح لهم ببذل جهد سوى أن جثموا منكمشين في الرمال ظنّاً بأنهم هكذا يختبئون عن الأنظار عندما مرّت إبلنا بإزائهم. ولكن محمد الآخر كان قد استخرج بندقيته وعبّأها قبل أن ينزلق بهدوء إلى الأرض، ثمَّ استتر من وراء شجرة شوكية صغيرة، وأطلق النار عندما خلا منّا المكان، وعندها قفزت الطيور الأربعة لارتفاع ياردة في الهواء ليحطوّا في ذات الموقع وقد أخذ منهم الرعب كل مأخذ، وأطلق محمد ثانيةً ونهضت ثلاثة طيور وداروا حولنا ثم هربوا تاركين الرابع على الأرض وقد أُصيب، ومن المحتمل أن الطلق الناري الأول كان قد أعاق أحدها عن الطيران وأن رفاقه قد قفزوا للهواء وعادوا لموقعهم معه شفقة به، أو أنّ الأربعة لم يحسوا بالخطر المحدق بهم وقد أصابهم الحرّ القائظ بالدوار حتى رأوا أحدهم وقد لاقى حتفه. كانت الضحية قد أصيبت بكسر في الرجل إضافة لجرح عميق في البدن.

ورأينا كثيراً من الغزلان أثناء النهار، ولكن لم تكن بالقرب الذي يسمح بالمطاردة، بينما خيّبت آمالنا الصغيرة المتمردة التي بذلنا جهداً كبيراً لتهيئة الظروف المناسبة لترحيلها على إحدى مطايا الحملة، إذ راحت ضحية الحرارة القائظة.

توّج نصبٌ كبير من ركام الحجارة هامة الصخرة في الموقع الذي شقّ فيه طريقنا المكان من مرتفعات انصلح ارتقاءً لمرتفعات رجد التي سرنا في سهلها الفسيح الذي لا تشوبه سوى كتل بازلتية[1] كبيرة هنا وهناك، وهي ما يسمونها في

(١) من المحتمل أن الروابي السوداء الكثيرة والتلال الموجودة في هذا الصقع وإلى الجنوب منه لم تكن من البازلت، بل حجارة رملية لسوء الطالع لم تصل إلاّ منذ عهد قريب، والعينات التي جمعتها من الجزيرة العربية ليقوم الاختصاصيون بتحليلها، وللأسف لم يتم التحليل بعد. وكنت في حقيقة الأمر قد تركت العينات مع أمتعتي الثقيلة التي وصلت متأخرة. (المؤلف).

هذا الإقليم الجنوبي هلا. وسرنا في اتجاه الجنوب وقبل أن ننصب خيامنا للمبيت بقليل كنا قد عبرنا طريقاً واضح المعالم يجري من الشرق للغرب بين مراعي البياض من جانب، وآبار قَلْها والورهية من جانب آخر، ويبعد الجانب ستة أميال عن الآخر. ثم سرنا حوالي سبعة أميال أثناء فترة ما بعد الظهيرة حتى بلغنا أول شعائب رجد وهو رافد لا اسم له يغذّى شعيب ديّة الذي ما بلغناه بعد. وقررنا أن نتوقف، ووجدت هنا في شجرة شوكية كثيفة عشّ صرد أو صلد وبه أربعة أو خمسة أفراخ لم يكتمل نمو أجنحتها بعد، وكانت الأم تحوم محلقة فوق الفروع العليا للشجرة لا تكترث لسلامتها هي بقدر اهتمامها بسلامة أفراخها، وكنت حينها أقوم بفحص العش، ويبدو أنها فعلاً من عائلة الصُّرد وألوانها بيضاء وسوداء ويعرفونها في شمال نجد باسم صبرى.

عندما واصلنا المسير صباح اليوم التالي عبرنا طريقاً آخر يقود إلى آبار قَلْها قبل أن نبلغ شعيب ديّة وهو أول الشرايين لنظام رجد الصرفي. يلتقي في أعلى هذا الموقع شعيبي الدُّرَيعْي وغُلْغُل ثم يعبر الشعيب المزدوج طريقنا في اتجاه الجنوب الشرقي ليقترن بشعيب شُطَاب - الذي عبرنا مهده المعشب والذي تكسوه بكثافة شجيرات المرخ والسلم - بعد ميلين من نقطة الاقتران. بدأت الآن المرتفعات في التموج اللطيف بعد أن كانت منبسطة حتى هذا الموقع. وكان طريقنا يهبط عبر سلسلة من الدرجات السهلة نحو سلاسل من التلال السوداء المختلطة في غير ما اتّساق، وسرنا بطول مهد شعيب الغينة الرملي المليئ بالأشجار. ثم أنخنا هنا بقرب بُريكة صغيرة من مياه الأمطار لتناول الإفطار، وتروّت في البريكة إبلُنا قبل أن نواصل سيرنا بجوار هضبة بارزة سوداء اللون وذات شكل مخروطي، وتحمل اسم ضليع العبيد، ثمّ تخطيناها لنخرج بعدها عن المجرى نحو مرتفعات متموجة

من الحصباء التي كان سطحها مقسماً إلى مربعات من اللون الأسود والبني، وكان اللون الأسود يسود أكثر كلما تقدّم بنا المسير حتى هيمن على المشهد في كل مكان حولنا، وبدا أمامنا وكأنّ حريقاً هائلاً شبّ في عهود قديمة وأحال المكان - لأميال عديدة في كل الاتجاهات حولنا إلى رماد[١]. يمكن أن تكون لهذا الحقل البركاني المتسع صلة بالمكان الذي يُسمّى حرّة السودا[٢] التي أخبرَ داوتي أنها تقع في منطقة طويق على مسيرة نصف يوم، ولكن لم يكن لها من الجلال ما كان لكتل الحرات العظيمة الموجودة في الحدود الغربية. وقد تكون هذه هي الطرف الأقصى لامتدادٍ شرقي للمرتفع العظيم الذي تمتد كتلته الرئيسة نحو الجنوب مذكّرةً بمردة حرة نواصف[٣].

تقدمنا للأمام لنجد شبكة من الشعاب الصغيرة التي تعرف جماعياً باسم أمهات شبيرم تعبرُ الأراضي السوداء القفر في طريقها لتقترن بشعيب الغينة الذي ابتعد تدريجياً - بأشجاره الخفيفة - عن طريقنا. أفسحت لنا بعد ذلك سلسلة سوداء منخفضة تقع من وراء هذا المنخفض المجال لرؤية حوض عريض في الأسفل، وانحدرنا نحوه قاصدين رابية يعلوها نصب من ركام الحجارة يسمُ موقع الآبار في الجانب الأقصى. ونحو هذه النقطة بدا مجريا سيل عريضان هابطين من جوانب طويق عبر الأراضي الوعرة. وأراح الخطّان الأخضران النظر في خضم تلك القفار الموحشة بألوانها السوداء والبنية والرماديّة ليقترنا معاً أسفل النصب، ثمّ

---

(١) راجع وصف الآنسة بيل للصفا شرق جبل الدروز في كتاب (The Desert and the Sawn) ص ١١٥. وما بعدها. (المؤلف).

(٢) راجع كتاب الصحراء العربية (C.M.D. Arabia Deserta) الجزء الثاني ص ٥٤٢. (المؤلف).

(٣) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٦٣ ، وص٢٦٧ . (المؤلف).

يمرّ المجرى المتحد نحو شعيب الغينة، ثم يتخطّاه. كان الشعيب الشمالي منهما يسمى وادي العرس والآخر وادي المراء، والاسمان يذكّران إن لم يكونا طرفاً في أسطورة تتحدث عن زواج ريفي تمت فيه الخطبة وحفل الزواج ودخول الرجل بعروسه بالقرب من ثقوب الماء المسماة مشاش العرس في موقع التقاء الواديين. حدث هذا الزواج في مناسبة يبدو أنها كانت التقاء قسمين متحاربين من أقسام الدواسر، حضر أحدهما من الشمال - كما فعلنا - أسفل وادي العرس، وهبط الآخر بطول المراء من مراعي طويق. وهناك منخفض بين المجريين، وكانت هذه السلسلة تحجب الفريقين بعضهما عن البعض حتى التقيا في الفضاء حول الآبار حيث دارت مشاورات سلمية لسبب غير معروف بدلاً عن المشاحنات والاستعداد للقتال، ثم تحوّلت على الفور إلى سلام دائم بزواج ابن أحد الشيوخ بابنة الشيخ الآخر. ترتبط ذكرى عقد القران بمجرى المراء، بينما ترتبط ذكرى وليمة الزواج بمجرى العرس.

أما الآبار فهي حفر غير مبطنة حُفرت في مهد المجرى الرملي لعمق أربعة إلى ستة أقدام في مواقع متعددة تغطي مساحات كبيرة. كانت هذه الآبار قد أفرغت تقريباً من محتواها بفضل تجمع من الرعاة الدواسر وخرافهم، وكانوا يحتلون المكان عند ورودنا إليه، ولكن إبراهيم استطاع - لا أدري إن كان بطريقة لطيفة أو خشنة - إقناعهم بحاجتنا الماسة فتركوا لنا إحدى الآبار واستعار منهم وعاء كانوا يستخدمونه لسقيا الخراف. هذه الأوعية تتكون من قاعدة أملودية بارتفاع قدمين وقطر يبلغ الطول نفسه ويوضع من فوقها جلد يستقبل الماء الذي يسحب من البئر. احتللنا إحدى الآبار للفترة القصيرة التي أنخنا فيها للقيلولة. وعندما ينضب معين الماء في البئر كان يتجدد سريان فيه بإجراء المزيد من الحفر في القاع الرملي. وكانت المياه بطبيعة الحال غير نظيفة لكنها كانت مقبولة وذات برودةٍ منعشة.

وعندما عاودنا الرحلة بعد الظهر سرنا بطول حافة سلسلة وثيثيات بين الشعيبين اللذيْن ارتفعا بحدّة عند بلوغهما الجانب القصيَّ من الحوض نحو نتوء حجري، ثم هبط الطريق بعد الوصول لقمّة النتوء هبوطاً حاداً بلغ مداه مئة قدم في اتجاه السهل الفسيح الذي كانت تحيط به مرتفعات صحراوية غير محددة المعالم وذات حواف منخفضة وتتقطعها رقاع مفرقة ومُعْتِمَة. عند رؤية هذا المشهد حيّاه الجمع تحية رجل وصل إلى غايته بعد أن هدَّه المسير «لا إله إلاّ الله، انظر يا صاحب! أُسَيْلّة[1] أمامنا». صاح محمد عندما توقفنا هنيهة لننظر إلى مسقط رأسه، وواصل حديثه «ومن ورائها ناحية اليسار تقع الجفرة، حيث توجد مزارع وحقول الحبوب وهناك ليلى والعمار وصالح وهذه هي الأفلاج وهذه هي بلدي؛ وهناك حيث سنقيم ليلتنا تسكن زوجي».

(١) وتسمى أيضاً (وسيَّله) و(أوسيَّله). (المراجعون).

٢- الأفلاج الحديثة:

«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر» كانت هذه الكلمات هي العصب لترنيمة قادتنا أثناء مسيرة النهار فوق قفار رجد المحرقة. كان الحداء الذي يترنم به منفرداً محمدٌ الشاب تكرّره المجموعة كما هو دون اختلاف، وليس بترديد لازمة خفيفة خلفه. لم أكن قد سمعت الحداء من قبل، وأدهشني أنها كانت منسجمة مع رتابة المكان من حولنا، ولكن رؤيتنا للحمى أمامنا حوّل المزاج على الفور بين رفاقي وعمّهم الفرح والحبور، وصاروا يتقافزون في مرح كالأطفال وهم يغنون أغاني مبتذلة عن الحب والحرب والسفر، وتارةً أخرى يهمزون مطاياهم المنهكة في عدوٍ محمومٍ لاصطياد غزال صغير مررنا بقرب مربضه في السهل المعشب.

ووفقاً لتقديري فإن قُطْر سهل الأفلاج يقلّ قليلاً عن أربعين ميلاً، ويضمّ الأراضي المنخفضة للإقليم. أما المناطق التابعة لها في مرتفعات طويق فستكون هناك فرصة للحديث عنها بمناسبة مروري بها في رحلة العودة. أمّا السهل فهو حوض دائري فسيح يميل قليلاً من الغرب للشرق، وتحيط به تماماً الحافة الشرقية لهضبة طويق من أحد الجوانب، والصخور المنخفضة للبياض من الجانب الآخر، باستثناء فرجة ضيقة في الجانب الشمالي لمحيط السهل، والتي تحجبها الصخور الجنوبية لهضبة رجد. وتربة الحوض طفلية رملية خفيفة وتغطيها تماماً الأعشاب الصحراوية وفي بعض المواقع تنتشر فيها أشجار قصيرة كثيفة باستثناء الربع الجنوبي الشرقي للدائرة الذي تغطي سطحه حجارة جيرية سهلة التفتت، وهو بعد عارٍ وقاحل ويرتفع قليلاً فوق سطح السهل.

وتمتـدّ قطرياً بعرض الحـوض من الشمـال الشرقي إلى الجنوب الغـربي أرض عريضة ذات خصوبة تفوق خصوبة بقـية الأرض، وكانت تختلف اختلافاً بيّناً عن الصحـراء التي كانت تحدُّها من الجانبين رغـم أن طبيعتـها كانت تتغـيّر هنا وهناك بأمواج رملية منجرفة. كما كانت توجـد بها بقايا وآثار حضارة طواها النسيان منذ عهد بعـيد، وأيضاً آثار تعطي إشارات مـعقولة عن صناعات مـعاصرة. وفي هذا الجزء من السـهل يمكننا أن نتتـبع بمؤشرات واضحـة ثلاث مراحل محـددة المعالم للتاريخ المحلـي: التاريخ القديم، وتاريخ العـصور الوسطى، والتـاريخ الحديث. فالتاريخ القديم تمثله آثار قوم عـاد في الوسط، وتاريخ العصور الوسطى تمثله فترة عنـزة في الجنـوب والعـصور الحديثة ومـا تحتله الدواسـر الآن ومـركز ثقـله في الشمال.

وكنا نتجه الآن نحـو الطرف الشمالي نحو آخر بقعـة في الشمال، أي القطاع الحديث. هبطنـا من آخر رفٍّ صخـري للرجد في الزاوية التي يكوّنهـا الرجد مع المرفق الناتئ من طويق نحو السهل. كانت تقع أمامنا مباشرة على البعد واحةُ ليلى التي قـادنا الطريق نحـوها في اتجـاه الجنوب عبـر هضـافة وهو منخـفض تغطيـه الشجيرات ويجري من جانب طويق في اتجاه الجنوب الشرقي بطول حافة مرتفعات رجد التي تصرّف مياهها في ذلك المنخفض من خلال أودية صغيرة يُغطيها الحصى وتجرى نحو شـعيب العرس. سلكنا الطريق الرئيس لمسـافة ميل ثم حوَّلنـا مسارنا نحو الجنوب الشرقي في اتجاه أُسيلة من موقع يسـبق قاعدة الأفلاج الأمامية بقليل وهي مزارع قريبـة شجرية خربة، والتي تروي القصص المحلية أنه كـانت تحيط بها

زراعة منتشرة قبل نصف قرن من الزمان، في عهد فيصل[1]، رغم أن آبارها المهجورة قد ماتت منذ زمان. وكانت تتناثر الروابي البازلتية هنا وهناك في مجرى هضافة، الذي أخلى السبيل الآن لرقعة ممتدة تربتها طفلية رخوة تغلّفها الأملاح وتغطيها أعشاب الرمث ويقطعها مهد رملي لشعيب أم الجرف الذي كان يتلوَّى بين جانبين يرتفعان لقدمين نحو حقول الحبوب بأُسيلة.

قال لي محمد: «انظر هناك أحد قصور جرفة في اتجاه الشرق، والأرض حولها أرضي أنا وأخوتي الثلاثة وأبناء عمومتي الأربعة، ولقد تمكنّا أخيراً في العام الماضي من إعدادها للزراعة بعد جهد وتكلفة مالية عالية، والآن استأجرها منّا الحضر (أي رجال المدينة) في أُسيلة لقاء ٥٠٠ صاع من القمح في السنة. وتوجد بالأرض ثلاث آبار سحب عمقها عشر قامات، لذلك كان جهد حفرها عظيماً، وفي كل عام في وقت الحصاد نأتي من المراعي لاستلام حصصنا من الريع. ولقد اتخذت زوجة من الحضر تعيش في أُسيلة مع أهل أبيها، ولكنني لا أراها إلاّ لماماً، ولكن -إن شاء الله- عندما تأذن لي الليلة أو غدًا سأقوم بزيارتها. ونحن نقدّر أن المسافة بين أُسيلة والأحساء تستغرق اثني عشر يوماً عبر البياض، ونحن نسقي الإبل مرّة واحدة أثناء الرحلة في أُسيلة قبل أن ندلف إلى الدهناء. هناك تلٌ صغير إلى الجنوب من أرضي، أتراه؟ إنه هناك في حافة الصحراء، نحن نسمّيه مريقب، وعلى قمته يجلس الرعاة يراقبون قطعانهم وهي ترعى».

اقتربنا من غايتنا. وكانت القصور مصطفّةً في خط طويل حسبت منها أربعة عشر، ستة منها خربة واصطفت بجانبي أم الجرف في شريط ضيّق من الأرض

(١) الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

المزروعة بالحبوب مع رقاع متفرقة من البرسيم والعصفر وشجيرات رمان متناثرة بامتداد ميلٍ أو نحوه حتى قرية أُسيلة الصغيرة وما يحيط بها من بساتين النخيل. وكانت بساتين النخيل في أُسيلة خمسة بساتين متناهية الصغر. سحبنا عنان المطايا وخيَّمنا بجوار إحدى القصور الكبيرة على حافة المجرى، وبدأ الإعداد لوجبة المساء. ولم يأبه أحد من أهل الناحية بقدومنا ولكن أثيرت احتجاجات فظة عندما تقدم إبراهيم ليجمع بعض الحطب لاستخدام المخيّم.

وكان رد فعلهم هو حجارة قذفوها نحونا وإساءات وجهوها لزعيم المعارضة الذي نكص على عقبيه لينضم إلى رفاقه دون أن يسبب أي نوع من المشاكل بعدها. وسألت محمداً: «ولكن أين أم الشناظر التي تظهر على خارطتي بالقرب من أُسيلة؟» فأجاب: «لاأدري، ولكن كل هذه أُسيلة حتى بساتين النخيل هناك، ولكن الاسم الآخر لم أسمع به على الإطلاق».

ولكن كان معنا رجل حضري من الخرج يدعى عبدالعزيز وكنا قد التقينا به سائراً بمفرده على قدميه في اليوم الأول لنا في ذلك الإقليم، وكنا نساعده بإعطائه الفرصة للركوب من وقت لآخر والسماح له بالإقامة معنا في المخيم ومشاركتنا طعامنا.

قال لمحمد «ألا تعلم؟ إننا نخيّم الآن في أم الشناظر، إنها ليست سوى اسم البئر التي سحبنا منها الماء الآن، إحدى آبار أُسيلة، ولكن الغريب أن دارك هنا ولا تعرف قريتك بالقدر الذي يعرفه غريب لم يرَ المكان من قبل، ولكن الإنجليز لا تفوت عليهم فائتة، هم يعرفون كل شيء ويستفسرون عن كل شيء، حتى أسماء النباتات والحشرات؛ كما رأينا».

معظم المياه في أسيلة مـالحة «هَمَاج» كما يسمونهـا، ولكن المياه العذبة توجد في ثلاث آبار وهي أم الشناظر، بالقرب من مـخيمنا، واثنتان أخـريان بالقرب من القرية الصغـيرة في الطرف الجنوبي للهجرة، وعمق الماء فيـها في المدى بين ثماني إلى عشـر قامات. بسـاتين النخيل بالقرية بسـاتين هزيلة تتداخل مع أجـمات من الأثل وشجيرات متفرقة من الرمان والقرية نفسها ليست سوى مجموعة من البيوت البائسة، عددها حوالي ثلاثين، وكل سكان القرية من الدواسر من فخذ آل حسن، وعددهم بالتقريب ٢٥٠ نسمة بما في ذلك سكان القصور. ويكتمل المشهد بوجود مزارع قليلة منعزلـة في الجوار في الجزء الشرقي من السهل وتحـيط بالمزارع حقول الحبوب مثل النهقة وبداخلها بيتان ريفيان «قصور»، وهي ملك لأمير ليلى، وهناك صباح الخير إلى الجنوب منها، وقصر رَوَّاس في موقع يبعد قليلاً ناحية الشرق.

في الصبـاح الباكر مـن يوم ١٤ مايو (أيار) قوّضنا المخـيّم متجـهين إلى ليلى العاصـمة الحديثة للإقلـيم والتي تبعد حوالي سـتة أميـال إلى الجنوب الغربي من أُسيلة خـرجت امرأتان كالعـادة لجمع الحشـائش لأبقار الآبار على جانب مـجرى صغير يسـمى ويطن يعبر السهل العاري من الغرب للشرق، وعند رؤيتـهما لموكبنا متقدماً عبر السهل وقفتا مـذهولتين هنيهة - لابد أن شائعات قدومي قد سبقتني - ثمّ أنزلتـا أحمالهـما من حـزم العشب على الأرض، واسـتدارتا وهربتـا في ذعر أمامنا. ولم تنجح صرخـاتنا المطمْئِنَة في إيقافهـما، ولم يكن من اللائق أن تصلا إلى المدينة قبلنا لتحكيا مـا أصابهما من ذعر بسببنا، لذا دفع مـحمد ذلوله للحاق بهما وما لبث أن عاد بهما، وجثت المرأتان الخائفتـان أمامه على ركبتيهما تتوسلان بصرخات تدعو للرثاء طلبـاً للرحمة. ولكم ارتاحتا وتعجبتا عـندما مررنا بإزائهما دون أن نعيرهما التفاتاً. وقال لي طامى عندمـا نهضتا عائدتين لحزم العشب الملقى

على الأرض: ترى، لم يحدث أن رأتا رجلاً شبيهاً بك من قبل ويحدثهن معلمهن أنكم تأكلون الرجال وتغتصبون النساء حيث ذهبتم إنهم ليسوا سوى جماعة من الجهلاء والبسطاء».

قوبلنا بكثير من الفضول غير المؤذي من الناس عندما بلغنا المبرّز وهي قرية فسيحة لكنها مهدمة، تقع في زاوية من الواحة في ركنها الشمالي الغربي حيث استقبلنا إنابةً عن الأمير تابعُه، وهو دوسري من حاشيته يدعى محمد، وقادنا بطول الحافة الغربية للنخيل لفناء رملي عارٍ في قبالة البوابة الرئيسة لليلى وهي البوابة الغربية. ويقف حائط ليلى وأبراجها التجميلية الصغيرة إلى الخلف قليلاً من وراء حاجز رقيق من النخيل في صورة ذات سحر غير معتاد، وقابلنا في أرض المخيمات مبعوثان آخران للأمير أحضرا معهما زاداً وفيراً لإقامتنا: وهي خمسة من الأغنام، وطبقين كبيرين من أجود أنواع التمور المحلية، ودلة كبيرة من البن اليمني والذي يسمّونه بَرِّيَّة لأنهم يستوردونه هنا بالبر[1]، وكثيراً من الخضراوات ولبن الأبقار وبرسيماً للإبل. وتركت لإبراهيم أمر إعداد هدايا الرد ليعود بها الخدم إلى أميرهم، وكذلك مهمة إعداد مخيمنا بينما ذهبت أنا ومعي طامى وآخرون من المجموعة دون تأخير لتحية الأمير. قادنا طريق ضيّق من مخيمنا عبر مزارع مسوّرة إلى البوابة الغربية التي كان يدعم حائط المدينة في أحد جوانبها صفٌ من أعمدة تنتصب فوق مهد مجرى السيول. بينما كان في الجانب الآخر نتوء عن خط الحائط، ذلك كان مسكن الأمير العالي المحصّن «قصر الشيوخ».

(١) المعروف أن سبب التسمية يعود إلى مكان زراعتها وليس إلى طريق جلبها كما أشار المؤلف. (المراجعون).

بدخولنا للمدينة انحنى بنا الطريق إلى اليمين، وبعد خطوات قليلة وصلنا لبوابة القلعة العظيمة التي تواجه السوق المستطيل الأبعاد. وبعد المدخل مباشرة، وفي صالة ضيقة معتمة حوائطها مزودة على الجانبين بأرائك طينية خفيفة، جلس سعد بن عفيصان، حاكم مقاطعة الأفلاج التي انتقل لإدارتها منذ عهد قريب من وظيفةٍ قليلةِ الأعباء هي إمارة قريته بالخرج، ويُعرف ابن عفيصان في نجد كلها كرجل قوي لا تلين شكيمته، مع التزام صارم بالتعاليم السلفية، ولقد كان أيضاً - وفقاً لظني - ذا مقدرة عالية من الحكمة والتصرف واللطف مما جعله يتمتع بمزايا عديدة نتج عنها نجاحه الذي وضح في إدارته لقبيلة صعبة المراس، كثيرة المشاكل، كما بدا جلياً في شعبيته. كان الرجل يبدو في منتصف العمر أو أقل من ذلك قليلاً، ومظهره في ملامح الوجه والبنية مثالاً للنجدي؛ نحيل ولكنه ليس طويلاً وبه شيء من وسامة، رقيق عظم الخد وله لحية خفيفة وذقن مستدقّة، وصوته حاد بعض الشيء. وبعد أن فرغنا من التحايا الرسمية أجلسني الأمير على المقعد إلى يمينه ودارت أقداح القهوة، وذهب القدح الأول له وأخذه -وهذا أمرٌ صحيح من ناحية المراسم رغم أن عبدالله بن جلوي الذي لم يكن حاكماً لمقاطعة فحسب، بل أحد أعضاء العائلة الملكية كان سيفعل العكس- وقُدّمَ إليّ القدح الثاني.

أخبرته عن تجربتي في الخرج ومستودعات الماء العظيمة التي اعترف لي بأنه لم يرها، وقال لي: «ولكن انتظر لدينا هنا ينابيع أكثر عظمة من تلك الموجودة في الخرج وستراها غداً. أما وادي الدواسر فلم يجرِ فيه الماء لثلاثة أجيال خلت، ولكن في العام الماضي في رمضان جعله الله يفيض بالماء في المجرى القديم واخترق حاجزاً رملياً لمسافة تبلغ مسيرة يومين في العرض، وجرى الوادي حتى

كمدة. اسـأل متعب هنا وهو أحد شيـوخ الوادي الذي وصل هنا الآن في طريقه للرياض». قال هذا ملتفتاً لشيخ القبـيلة الذي كان جالساً إلى يسار الأمير بينه وبين أحد أعيان المدينة، أظنه أحد أفـراد بيت العجالين وسألت الشيخ: «إن لم تكن في عجلة عظيمـة من أمرك لبلوغ الرياض، أترافقني في رحلتي للوادي ثم نعـود معاً لابن سعود؟ وابتسم الأعرابي قـائلاً: وش المصلحة؟» ويمكنني ترجمة هذا السؤال كالآتي: «هل تكـون المكافأة بقدر العنـاء؟». وطلبت من إبراهيم لاحقـاً أن يتابع مناقشة الاقـتراح معه، ولكن يبدو أن متـعب فكر كثيراً فيمـا عُرض عليه ولم أره بعدها. وعلّقت في حضرة الأمير مشـيداً بالحالة الأمنية المستقرة في الإقليم الواقع بين الخرج والأفلاج. وكان رد الأمير: «نعم في السابق لم يكن هناك سوى القليل من الأمن في هذه الأنحـاء، ولكن الشكر لله ومن بعـد للسيـاسة الرشيـدة لابن سعود أن تغيّر كلُّ ذلك، وحتى القبائل المتنافـرة تُغير على بعضها البعض فقط بعد أخذ الإذن من ابن سعود، وإن لم يفعلوا تعرضوا للعقاب»[1].

«منذ عهد قريب هاجمت قبيلة معسكراً لقبيلة أخرى وقتلوا اثنين منهم ولكن ابن جلوي زجّ بسـبعـة من المعتـدين في السـجن. ولم يمض وقت طويل منذ أن سمحت لجمـاعة من إحدى القبائل لمهاجـمة يبرين حيث سيرجعـون قريباً إن شاء الله، إذ مضى أسبوعان منذ أن بدؤوا رحلتهم في الصحراء بعد أن أعدّوا لها العّدة إذ كانت كل ذلول تحمل قربتي ماء وشوالاً من التمر، وعندما يقتربون من هدفهم يتركون قـرب الماء في الصحراء ليغـيروا على هدفهم، ثمّ يقفلوا عـائدين لالتقاط

(١) يقصد أمـير الأفلاج هنا أن تحرك قبـيلة ضد أي قبيلة أخرى لأي سبـب من الأسباب لابد أن يكون بعلم الملك عبدالعزيز وإذنه وذلك لضبط الأمور في المنطقة وإشاعة الأمن والاستقرار. (المراجعون).

قربهم من حيث تركوها، إذ ليس في كل تلك الصحراء ماء، وفي هذا الموسم حتى الإبل لا تحتمل العطش إلاّ بصعوبة. لقد كنا في ليلى طوال الوقت مساندين أوفياء لابن سعود ضد العناصر الخارجة على القانون. إن مساهمتنا العسكرية المعتادة هي ٣٠٠ رجل ولكن في حالات الخطر الاستثنائية نرسل رجالاً أكثر، مثلاً قبل اثني عشر عاماً قام ابن رشيد، مدعوماً بكتائب عديدة من الجنود الأتراك[1]، ومعه بعض المدفعية متقدماً نحو القصيم. في تلك المناسبة ذهب ٨٠٠ رجل من ليلى وحدها للانضمام لقوات ابن سعود ونُظّم هجوم معاكس عظيم في هديّة، حيث اقتلع الله الجنود الأتراك، ثم اقتلعهم ابن سعود، وعاد بقاياهم إلى بغداد ليتركونا في سلام».

بعد مرور المبخرة علينا للمرة الثالثة، رأيت هذه السانحة مناسبة للاستئذان في الانصراف من حضرة الأمير الذي كنا نازلين في ضيافته لعدة أيام قادمة، والذي سأجد لهذا السبب مناسبات كثيرة للقائه مجدداً. لم يكن قد نهض لملاقاتي عندما دخلت عليه في البداية، لكنه نهض الآن ليعجّل بانصرافي. ولكنه كان بعد ذلك ينهض لملاقاتي ولوداعي. ولقد سمعت لاحقاً من إبراهيم أن الأمير أقرّ أن تلك كانت أول تجربة للقاء مباشر له مع كافر، وهي تجربة برهن فيها على أنه خادم وفيّ لابن سعود، واعترف أيضاً أن التجربة لم تكن بالسوء الذي كان يتوقعه.

ذهبت مع رفاقي للسوق، وهو مستطيل الشكل وليس متسعاً، يحدّه من أحد الجوانب حائط القلعة، ومن الجهات الثلاث الأخرى صفوف من متاجر ذات طابق

---

(١) راجع كتاب بلجريف (G.L.B. The Desert and the Sown). ص ٤٦-٤٧. وقعت هذه الأحداث في شتاء عام ١٩٠٦/١٩٠٧م. (المؤلف).

واحد، ستة عشر متجراً في كلٍّ من الجوانب الطويلة وأحد عشر في الجانب الثالث. كان الفناء الذي يتوسط المتاجر مكتظاً بالمشترين وبالباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم في سلال مكشوفة أو على الأرض الرملية، حزمة أو حزمتين هنا من أعشاب الصحراء أو البرسيم، وهناك سلة فاكهة أو خضراوات، وكمية جيدة من الملابس المنسوجة في المنازل والمصبوغة بلون أزرق باهت، ويقال إنها مستوردة من الأحساء.

علمت أن ليلى هي المدينة الوحيدة التي تضمّ سوقاً مهماً في الأفلاج ولكن التعاملات في السوق أظهرت قدراً متوسطاً من النشاط التجاري. ويجري عبر الطرف الأعلى من السوق الطريق العام المهم والوحيد الذي يشق المدينة ويربط بين بوابتها في الأطراف الشمالية والجنوبية. وبعد خروجنا من حضرة الأمير دلفنا عبر البوابة الجنوبية إلى طريق جانبي يقود عبر بساتين نخيل لقرية الجفيدرية الصغيرة الواقعة في الركن الجنوبي الغربي للواحة. هنا تمهلنا في سيرنا متخذين الطريق الرئيس الضيق المتعرج من البوابة الشمالية حتى البوابة الجنوبية، وهكذا مررنا بالواجهة الغربية للقرية وهي أبعد ما تكون عن الانتظام، وبها أيضاً بوّابة -أما الحائط الشرقي فهو يقود مباشرة إلى بساتين النخيل وليست له بوابة- ثم عدنا إلى خيامنا حيث كانت وجبة الصباح قد أُعِدَّت. وبقي معنا من حاشية الأمير الذين لهم ما يربطهم بنا عمل، بينما تجمّع حول المخيّم على بعدٍ ما مجموعاتٌ صغيرة من سكان المدينة - أغلبهم من الأطفال والنساء - يحدّقون في الغريب الكافر. كان ما دفع الناس للتحلّق حولنا وفقاً لما أحسسته هو الفضول ببساطة وليس المعارضة والعداء، ولم يحدث قط أن تعرضتُ لمضايقة أثناء تجوالي حول المدينة والواحة، ولكن قد يكون الفضل في هذا للأمير الذي أعلن على الملأ متوعداً أنه

سيقطع اليد اليمنى لأي شخص يتحدث عني، ولم يكن ليتردد في تنفيذ وعيده إن دعا الحال. وقد أثبتت الحادثة التي وقعت بعد ظهر اليوم الذي وصلنا فيه أنّ هناك في المدينة من ساءهم وأحنقهم كثيراً السماح لي بالحضور إلى دياره.

جاس الكرى خلال المخيّم، وجلستُ أنا أقرأ في خيمتي عندما شعرت بأصوات غاضبة في الخيمة المجاورة. وبعد دقيقة رأيت أحد خدمنا خارجاً منها ومعه آخر من جماعة الحملة وهما يحملان سيوفهم و «المشعاب»[1]، وأسرعا في اتجاه بساتين النخيل وهما ينويان شراً. وصحت منادياً إبراهيم الذي كان حينها نائماً: «يا إبراهيم! إبراهيم، أين ولماذا يذهب هذان الاثنان؟ ماذا حدث؟ اطلب منهما أن يعودا حتى لا يتسببا في إثارة مشكلة». وعند نداء إبراهيم لهما، عاد الرجلان اللذان كانا قد خرجا دون إذن. وسألهم إبراهيم عن الأمر وأجاب أحدهما «ذهبنا أنا وهذا إلى بئر هناك في أحد البساتين للاغتسال قبل صلاة العصر، وعندما كنا نغتسل أتى صاحب البستان إلينا مع بعض خدمه وطردنا وهو يصيح «كُفارٌ»، ولم نكن مسلحين لذا عُدنا لنأخذ أسيافنا لنريهم أنه لن يفلت من العقاب من يسيء لخدم ابن سعود». عندها وبَّختهم أنا على انجرافهم وفرط حماقتهم، وانقضت الأيام الثلاثة التي بقينا فيها هناك دون أن تتكرر مثل هذه الحادثة.

وفي وقت متأخر من فترة ما بعد الظهيرة اعتدلت درجة الحرارة قليلاً، وكانت قد بلغت ١١٢ْ في الساعة الواحدة بعد الظهر، فخرجت في جماعة قليلة من

---

(١) المشعاب: عصا الإبل(*). (المؤلف).

(*) المشعاب مصطلح محلي يقصد به العصى الغليظة والتي عادة ما يحتفظ بها المسافرون عبر الصحراء لاستخدامها لأغراض متعددة ومنها الدفاع عن النفس، أما ما يستخدم في حث الإبل والماشية على المسير فيطلق عليه العرق وهو أصغر حجماً من المشعاب. (المراجعون).

رفاقي لتفحص الواحة وهجرها. وكانت الواحة تمتد لمسافة ميل بين الشمال والجنوب، وبساتين النخيل فيها مهملة بعض الشيء رغم أنها كانت منتجة لأنواع ممتازة من التمر: أجودها وأعلاها سعراً السري والصفري وكلاهما من التمور كبيرة الحجم، وهناك نوع يُسمّى نبوت سيف تمرته صغيرة ولكنها شديدة الحلاوة، ولكن يشيع الناس أن أكلها يسبب الحرارة رغم أنني تناولت كميات كبيرة منها أثناء إقامتي دون أثر ضار. أما العينات المحلية الأخرى فهي خضري ومقفزي ومسكاني. وهناك أيضاً الكثير من حقول الحبوب في وسط الواحة وكذلك في أطرافها، وخاصة في الجانبين الشرقي والجنوبي، وهناك أيضاً التنوع المعتاد: البرسيم، وشجيرات القطن التي تزرع كفواصل، والرمان والتين والأعناب. والمشهد العام للواحة ينبئ عن ازدهار سابق ويوحي باضمحلال حالي، ولتعليل ذلك لا بد من الرجوع للتاريخ العاصف للمقاطعة أثناء النصف الثاني من القرن السابق. وجدت البساتين الواقعة في الجانبين الشمالي والشرقي وقد زحفت عليها الرمال المتحركة، وأخبروني أنّ هذا الأثر حديث نسبياً. وفي أسفل القرية يوجد عدد من هياكل لمباني بلا أسقف هي «لقصور» كانت تَحْرس في زمان مضى هذا الركن من الواحة ضد اعتداءات المستوطنة المجاورة المنافسة: السيح.

كانت المبرّز حتى نهاية عقد السبعينات من القرن الماضي هي المستوطنة الرئيسة لواحة ليلى، ولكنها في السنوات التي تلت وفاة فيصل، أحالها خليفته عبد الله إلى الحالة التي هي عليها الآن نتيجة للدور الذي أدته إنابة عن أخيه المنافس سعود، أثناء الصراع بينهما. وحتى بعد ذلك لم يكف سكانها عن إزعاج منافسيهم في ليلى التي أعاد بناءها -لتصير على ماهي عليه الآن- عبدالله الذي ارتقى بها لتصبح عاصمة للواحة. وقالوا إنّ معركة حامية الوطيس دارت قبل

سنوات قليلة في الفناء بين المدينتين ونجم عنها مقتل خمسة عشر رجلاً مما أثار حفيظة ابن سعود على المبرز، الذي أعاد السلام إلى المنطقة بنفي المجموعة التي تسببت في الحوادث عن مسقط رأسهم المبرز. وأسوار مدينة المبرز مهدمة للحدّ الذي لا يمكن إعادة ترميمها. وتستخدم بيوتها التي فقدت أسقفها كحظائر لقطعان الخراف والأغنام الكثيرة التي رأيت أطفال القرية يعودون بها مساءً بعد أن خرجوا بها صباحاً للرعي. ولن يكون من السهل تقدير تعداد السكان بالمستوطنة حالياً، ولكنني حسبت حوالي مئة طفل مع القطعان وقد يكون التعداد الكلي ٥٠٠ نسمة.

ليلى أو غصيبة كما يسمونها أحياناً لتميّزها عن الواحة التي توجد بها هي المدينة الوحيدة، ولذلك فهي المركز السياسي والتجاري للمقاطعة ولقد ربحت بفضل ما حدث من كوارث لمنافستها، ونمت سريعاً في السنوات الأربعين السابقة بعد أن كانت قرية ليس إلاّ، لتصبح مدينة مسوّرة جيدة يسكنها ٤٠٠٠ نسمة، معظمهم من فرع العجالين التابع لقسم عجلان من قبيلة الحسن كانت القبائل هنا تتنازع من أجل السيادة بدافع من حب النزاع والقتال، ولكن في الأوقات الأخيرة زال التنافس على السيادة المحلية إذ أن ابن سعود الذي استطاع لم شمل رجال القبائل، أيقن أن العنف والكراهية التي تقود للتشاحن من أجل السيادة المحلية تجعل السلام بعيد المنال. لذا سعى لاجتثاث كل أسباب النزاع والشقاق بأن جعل الأقسام المختلفة التي تسكن معاً في ذات المرتبة وجعلهم كلهم تحت إمرة حاكم يعيّنه هو ويخضع لإشرافه المباشر.

وتحتل مدينة ليلى موقعاً مركزياً في الجانب الغربي للواحة، يتوسطها مجرى السيول: باطن الأحمر الذي يصدر مجراه الرئيس بالقرب من حمر في مرتفعات طويق ويتجه نحو الجزء الجنوبي من الواحة ماراً عبر الَخرْفَة والعَمَار نحو السيح. أما الرافد الذي يجري نحو ليلى فهو يدخل المدينة تحت السور بجوار البوابة الرئيسة، ويخرج منها مجدداً بالقرب من البوابة الشمالية نحو منخفض في ذلك الجانب. تسمو عن يمين البوابة الرئيسة الكتلة البديعة «قصر الشيوخ» أو المسكن الرسمي للأمير الذي تعلوه أبراج الزينة العالية في كل أركانه، بينما تقف في الركن الجنوبي الغربي للمدينة قلعة لا تقل روعة عن قصر الشيوخ هي مسكن معجب بن تركي زعيم العجالين، بينما يسكن رفيقاه في زعامة الفرع نفسه: حزام ابن خزام، وثلاّب بن فلاج، في مساكن في قلب المدينة. لقد تحدثت بما يكفي عن السوق ولكنني لم أرَ الجامع الرئيس. أما الجزء الشمالي الغربي للمدينة، على الجانب الأيسر لمجرى السيول فيحتله الفقراء، بينما تنأى عناصر العبيد المحررين بسكنهم في مجموعة من المباني المنعزلة. كانت القرى الصغيرة: مرير والخريمي تقعان خلف الأسوار في الجانب الشمالي للمدينة في اتجاه المبرّز. أمّا قرى الجُفَيْدرية ورُماحي فهي التي تكمل قائمة الهجر في هذا الموقع. وقرية رماحي الصغيرة ماهي إلاّ مجموعة مهملة ومهدّمة من البيوت تحيط بالمسجد الأنيق الواقع في قلب الواحة. ويبلغ تعداد السكان في هذه المستوطنات مجتمعة - كما أخبرني الجميع - نحواً من ٦٠٠٠ نسمة.

وتقع إلى الجنوب الشرقي من واحة ليلى على بعد ثلاثة أميال، بساتين نخيل السيح التي وإن كانت حتى الآن أكثر واحات المقاطعة ازدهاراً، إلاّ أنها تبدو وكأنها جزء من الأفلاج القديمة بحكم وضعها الجغرافي والتاريخي وكذلك لنمط

الزراعة بها. وكانت قرية وواحة الَعَمار الصغيرة تقع على بعد ميلين من مخيمنا في اتجاه الجنوب الغربي التي قمت بزيارتها في اليوم التالي لوصولنا لليلى. وعلى بعد ثلاثة أميال إلى الجنوب الغربي من الموقع نفسه تقع مجموعة قوامها ثلاث واحات متلامسة: الَخْرَفة والروضة والصغو التي سرنا عبرها عندما واصلنا رحلتنا نحو الجنوب في اليوم الثالث.

وتحيط بواحة الَعَمار من الجانب الشرقي موجات عالية من الرمال التي يظهر أنها زحفت وخربت جزءًا كبيراً من الأراضي الزراعية التي انحصرت الآن في شريط ضيق من النخيل طوله رُبع ميل ولا يتعدى عرضه نصف ذلك. وفي وسط الواحة تقف قرية صغيرة تحيط بها أسوار عالية مزينة بأبراج ولها من الارتفاع والسماكة ما لا يتناسب والوضع الحالي للمستوطنة. طول واجهة القرية من الشمال للجنوب يبلغ مئة خطوة والواجهة من الشرق للغرب تبلغ مئتي خطوة. ويتوسط المستوطنة طريق يقود من البوابة الجنوبية المهدمة إلى فتحة في الحائط تُستخدم باباً. وفي الجانب الشمالي يقع قصر الأمير وهو مبني من طابقين تحيط به أسوار طينية سميكة ويعلوه برج ضخم. وأمام القصر يوجد المسجد العام، على الجانب الآخر من المساحة الصغيرة التي تتوسط القرية.

بساتين النخيل هنا ليست كثيفة وغير معتنىً بها، وهي تحيط بالقرية الصغيرة، من كل جوانبها باستثناء الجانب الجنوبي حيث توجد بعض حقول الحبوب وتتناثر هنا وهناك بعض المزروعات المساعدة؛ قليل من القطن وقليل من أشجار الخوخ والرمان، وشجيرة أو اثنتين من الليمون ونوع من البرتقال يسمونه «ترنج». ينبئ اسم الواحة عن هوية أهلها الذين ينتمون لآل عمار؛ أو الفرع الرئيس لقسم

آل عمار من قبيلة آل حسن، وكانوا فيما مضى جماعة قوية إلاّ أن الزمن وسوء الطالع قلّل عدد أفرادها في مستوطنتهم الأصلية فصاروا لا يتعدّون ٥٠٠ نسمة.

الَخْرَفة هجرة فسيحة ولكنها جدّ فقيرة، بساتين نخيلها متدهورة ولا يعتني أحد بحقول الحبوب ولا بأيكات الأثل والسنط، وتتناثر فيها بعد فواصل يسيرة منازل ريفية مهجورة ومهدّمة ومجموعات من البيوت البائسة. ولا يكسر رتابة المشهد الخرب المتهدم بها سوى قرية صغيرة، ذات مساكن طينية مهدمة وفي وسطها قصران جميلان بناؤهما حديث نسبياً. أحد هذين هو مسكن محمد بن شخبوط زعيم عناصر الغَيَيْثَات الذين يسكنون هذه الهجرة، وهم قسم مستقل من الدواسر، استوطنوا في هذا الموقع منذ عهد قديم. أما القصر الثاني ويسمى قصر الضيكان يخص فيما يبدو أحد أفراد القسم نفسه، وقد يكون المنزل الحضري لمحمد بن عقيان زعيم الجزء البدوي للغييثات الذين توجد مراعيهم في مرتفعات طويق حول مستوطنة الأحمر. إن بالغنا في تقدير عدد سكان الَخْرَفة فيمكن أن نقول إنهم ١٠٠٠ نسمة، كما قالوا لي جميعاً، ولكنني أتّجه بتقديري لعدد أقل من ذلك، إلاّ إذا سلّمنا باكتظاظ السكان في حدود تلك القرية الضيقة التي قدّرت أبعادها بالتقريب كما يلي: ٧٠ × ٥٠ ياردة. يفيض الأحمر كل عام ليغمر الجزء الشمالي من المستوطنة في وقت السيل.

ويعتمد السكان على الآبار التي تختلف أعماقها بين ٥-٨ قامات وفقاً لحالة الموسم، لتسقيهم ومحاصيلهم طوال العام. وقد تعاقبت قصور خربة مع رقاع من أثل في خط يفصل الخرفة عن واحة الروضة المجاورة، في اتجاه الجنوب والتي يسكنها فرع آل مبارك من العماريّة، وهم أبناء عمومة سكان عمار. وقد يبلغ

تعداد سكان هذه الهجرة ٥٠٠ نسمة موزعين على ثلاث قرى صغيرة متجاورة: رقيصية في الشمال، والروضة نفسها في الوسط، وهي الأكبر بين الثلاثة، وقرية ثالثة في الجنوب لم أعرف اسمها.

ولم تختلف بساتين النخيل وحقول الحبوب المحيطة بهذه القرى إلاّ قليلاً عن تلك المحيطة بالخرفة، إلاّ أنها تقل عنها بؤساً وتصغرها مساحةً؛ ولكن القرية الوسطى تميزت عمّا يحيط بها وبدت كدُرَّة صغيرة من درر المعمار. وكانت أبراج الزينة التي تعلو أركان سور القرية ومئذنة الجامع تكوّن مجموعة بديعة من القباب المدببة التي تسمو عالياً فوق مستوى البيوت البائسة الموجودة في الأسفل. وكانت واحة الصغو المتناهية الصغر والتي لا تتعدى مساحة قرية صغيرة مسوّرة تقع جنوب الروضة مباشرة للدرجة التي يُظنُّ معها أنها جزء منها، وبها بعض القصور المتفرقة، وتحيط بها مساحات صغيرة من بساتين النخيل مع رقاع من حقول الحبوب، ويعيش بها عدد لا يتعدى ٣٠٠ نسمة. يقود الطريق بعد هذه الواحة نحو الجنوب عبر قفار رملية بديعة تبدو باهتة على البعد.

والمواقع السكانية في الأفلاج الحديثة هي أسيلة وليلى والعمار والخرفة والروضة والصغو، وعمودها الفقري هو مجرى باطن الأحمر. عندما تجوب في هذه البلاد يتلقاك في كل مكان ما يوحى بالبِلَى، ويعيش هنا عنصر بشري، يحيا حياة ضنك في وسط حطام بيوت كانت فيما مضى مزدهرة، وتحيط بها حقول وبساتين كانت فيما مضى مثمرة، ولاشك أن السلام قد حلّ في النهاية بالمكان، ولكن لمّا تظهر هناك بعد علامات الكدِّ والمثابرة التي يمكنها - وليس غيرها- أن تعيد بناء الحيوية التي أوهنتها الحروب. وقال لي الأمير عندما جلسنا معاً في أمسية

اليوم الثاني من إقامتنا، وكنا على السطح في قصر الشيوخ: «ما رأيَك في هذه البلاد؟ ألم تكن غنية في عهود مضت؟ ألن تعود كما كانت مرة ثانية إن أراد الله؟» وكانت إجابتي له: «هناك القابلية لأن تصبح أرضاً غنية، ولكن كما هو الحال في الخرج لا يقوم الناس بمحاولات لاستخدام الوسائل المتاحة لهم. لقد رأيت صحارى في بلاد أعمرها أهلها فاخضرّت بالسقيا، ولا أرى أن تترك صحاريكم دون زراعة والماء مبذول لكم وهو تحت سيطرتكم، بينما يمكننا باستخدام الآليات المناسبة والمضخات الضخمة أن نغرق هذه الصحارى من مستودعاتكم المائية العظيمة. يمكنني أن أقنع السلطات البريطانية لتخصيص مضخة كهذه لاستخدامكم». ثم قال لي: «إن كانت هذه هي إرادة الله فستخضرّ كل هذه الأرض، والله إننا لانسأل إلاّ الله، ومن بعده ابن سعود».

وشعرت أنني قد أغضبته دون أن أقصد، فسارعت أؤكد له أنني ناقشت أموراً كهذه مع ابن سعود، وأنّ الإجراء الطبيعي هو أن الحكومة البريطانية سوف تُمدّه- إن رغب هو في ذلك - بالآلات الزراعية. ثم سألني بإصرار: «ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟ لا شك أن الذي يحرك صداقتك مع ابن سعود هو الغش، وإلاّ فلماذا أتيت إليه؟ ولماذا تجوب بلادنا مسافراً في أنحائها؟ يقولون إنك تستفسر عن كل شيء وتسجله في الورق».

أكدت له أنه لا حاجة لنا في قفار نجد العارية، بل إننا نود أن نخلّص أنفسنا من أعباء بلاد أخرى أكثر ثراءً وعطاءً، أجبرتنا الضرورة المحضة على الإبقاء عليها تحت سيادتنا ونديرها حتى نتمكن من إعداد ترتيبات بديلة، وأننا سعينا لصداقة ابن سعود والعرب على وجه عام كوسيلة لإقامة الأمن والسلام على حدودنا والمحافظة عليهما.

ثم أجاب: «الله أعلمُ»، هكذا دون اقتناع بما سقته من حجج وأضاف: «وابن سعود هو خير من يعلم ما يرضي الله وينفع المسلمين، نصره الله على الكافرين». أدهشتني بعض الشيء نظرته لجماعته، إذ أنّ ابن سعود كان يتحدث معي عن أبناء الوادي بصفة خاصة على أنهم من أكثر الناس وفاءً وارتباطاً بالقضية. بيد أن تعليل الاختلاف بين وجهتي نظر السيد ووكيله بسيط ويسير إذ أن الأخير يعد أنّ الغاية هي أن ينذر الناس أنفسهم للعقيدة الجديدة، وهو أمر لم يستوعبه بعد رجال القبائل الذين لم ينالوا حظاً من المعرفة والتدريب.

في الساعة الخامسة صباح يوم ١٧ مايو (أيار)، وبينما كانت مُعدات المخيم تُحَمَّل على البعير استعداداً لمواصلة الرحلة، ذهبت يرافقني طامى وقليل من الآخرين للمدينة لوداع الأمير الذي كنت قد بعثت له ببعض الهدايا البسيطة في الليلة الماضية. وكانت قاعة القلعة مهجورة في تلك الساعة الباردة ووجدت سعد ابن عفيصان جالساً في عدد كبير من تابعيه في غرفة كبيرة مظلمة في الطابق الأرضي، وكانت الحملة - التي حدثني عنها - قد عادت لتوّها خائبة الرجاء، وكان قائدها سهمي بن سهمي زعيم قسم الهواملة من قبيلة الحسن، وهو رجل طويل رشيق، وكان حينها يتحدث عن تجربته وهو ممدد بطوله على الأرض بجوار الموقد: «الله يسلمك يا الأمير».

ثم واصل حديثه بعد أن حياني الأمير وبعد أن أخبرني عن الموضوع الذي كان قيد الحديث: «سرنا سبعة أيام ليلاً ونهاراً، وبلغنا أعتاب موقع يبرين قبل بزوغ الفجر، فأنخنا المطايا وبعثنا العيون صوبهم بينما كنا نصلي الفجر ونخلد لشيء من الراحة. ولكن عاد عيوننا ليخبرونا أنهم على سلسلة التلال يقومون بالمراقبة. ولم

يكن هناك مسوّغ للانتظار، إذ لم يكن عدونا يسمح بالنزال المباشر، إلاّ أن نأخذهم على حين غرّة. وخشينا أن يعلموا بوجودنا فيجدّوا في أثرنا، لذا ركبنا المطايا ثانية وقفلنا عائدين، وها نحن بين أيديكم حفظكم الله والله إن إبلنا لجائعة عطشى». فقال الأمير :«متعك الله بالقوة يا سهمي» والتفت إليّ قائلاً: «والله يا صاحب هذا السهمي لم يحدث أن عاد قط من حملة من قبل دون أن تكون إبله محملة بالغنائم».

٣- الأفلاج القديمة:

إن الاعتقاد المحلي الجازم هو أن مقاطعة الأفلاج تمتعت في الماضي البعيد نسبياً بدرجة من الثراء والازدهار تفوق بقدر كبير كل ما صار إليه شأنها في العهود اللاحقة. وهذا الاعتقاد تؤيده -بما لا يدع مجالاً للشك- البقايا والآثار الكثيرة لحضارة لم يُعرف لها مثيل في الجزيرة العربية المعاصرة، وهي موزعة على امتداد يقارب عشرين ميلاً من الشمال للجنوب في الجانب الشرقي للجزء الصالح للسكن، فوق وحول المنحدرات الغربية لمسطبة وعرة خفيضة من الحجر الجيري تسمى الغضرا، وتمتد نحو الشرق حتى تبلغ الإطار الذي يحيط بقفار البياض. كان قلب هذه الحضارة بلا شك هو لسلسلة المستودعات المائية العميقة البديعة التي تغذيها الينابيع، والتي بقيت إلى يومنا هذا تنادي آذاناً صمّاء لاستغلال المصادر الزراعية في المنطقة التي تركت لعاديات الزمن حتى عمَّها الخراب.

كانت المستودعات المائية في قمة الهضبة، إلى الشمال قليلاً من النقطة المركزية للصقع، بينما يبدو أنه كان هناك مركزان أو أكثر للسكان في تلك الأيام السعيدة، أحدهما في اتجاه الطرف الشمالي للصقع بالقرب من واحة السيح الحالية، والثاني في اتجاه الجنوب بجوار رقاع نخيل غوطة البائسة. يقع كل الصقع إلى الجنوب من مجرى باطن الأحمر الذي يمر طرفه الشرقي عبر بساتين السيح، كما أنّ الصقع يقع إلى الشرق من خط يمرّ إلى الجنوب من ليلى ويتجه إلى شرق البديع. ولعل الصقع المذكور لم يكن قط ذا عرض كبير رغم أننا قد نفترض أن واحة منطقة البديع - والتي سميتها أنا الأفلاج الحديثة- لم تكن قد تُركت دون زراعة عندما كانت بقية المقاطعة في قمة ازدهارها.

ويسم حزام من الكثبان الرملية الحدودَ الغربية للأفلاج القديمة، وقد يسمُ أيضاً الحدود الغربية للأرض التي كانت مزروعة في السابق من مياه المستودعات. كان هذا الحزام الرملي عميقاً وعريضاً في جزئه الشمالي، ثم تضاءل حجمه في اتجاه الجنوب حتى صار شريطاً ضيقاً من الرمال السطحية بالقرب من البديع.

لم يكن الوقت المتاح لي في الرحلتين اللتين قمت بهما من أجل فحص هذه المنطقة الرائعة يسمح لي بالتقصّي والمسح الدقيق للإقليم أو للارتفاعات التي كانت تتحكم في تصميم نظام الرّي المعقد الشاسع الذي رأيت آثاره في كل جانب. ولكن مجرى السيول الذي يعبر سهل الأفلاج، وموقع المستودعات المائية نفسها، وتنظيم الرّيّ، كل هذا جعلني أتصور نظام الري.

كان السهل ينحدر بانتظام من الغرب للشرق، إلاّ أن انحداره كانت تقاطعه هضبة الغضرا المرتفعة التي تبرز نحو الغرب من حدود البياض باندفاع نصف دائري، وينحدر السهل بتدرُّج إلى أسفل في الاتجاه نفسه مع منحدرات جانبية تقع في الشمال والجنوب وتقترن بالتدريج وهي تتراجع نحو الشرق متناغمةً مع الانحدار العام للسهل. ثم إن المستودعات المائية توجد على رفٍّ جوار قمة المنحدر وتتفرع منها قنوات الرّيّ منتشرة في انحدار نحو الخارج في اتجاهات الشمال والغرب والجنوب. ورغم أنّ تصوّري لنظام الري في ذلك الزمان مبنيٌّ على ما رأيت آثاره على الأرض، إلاّ أنني لا أستطيع أن أجزم أنه كان في حقيقة الأمر كذلك، ولكن الشواهد تعضّد تصوّري هذا، وهو أولاً يتكون من سلسلة من القنوات التي تمتد من المستودعات الشمالية وتسيل نحو الشمال لتسقي نخيل السيح، وثانياً هناك قناة مخفية لم أتمكن من التعرف على رأسها رغم أنّ الجزء الظاهر منها في النقطة التي رأيتها فيها كانت تجري نحو الجنوب في اتجاه غوطة،

بينما كانت هناك مجموعة ثالثة من القنوات - التي لا تُستخدم الآن - تجري في اتجاه غربي أو شمالي غربي من جوار المستودعات المائية نحو خرائب قرية قديمة تسمّى مخاضة في مهد باطن الأحمر.

والعيون أو مستودعات الأفلاج المائية هي تكرار - بيد أنّها أكبر- لعيون الخرج التي وصفتها سابقاً. وكما هو الحال مع سابقتها يُقال إنها بلا قاع وتغذّيها ينابيع خفية توقف بعضها عن العطاء، ومثلها أيضاً تدخّل الإنسان لينحت المخارج منها ويعدّ متاهة من القنوات المخفية من نوع الكاريز، والتي كانت تحمل مياهَهَا فيما مضى من زمان - ومازالت- نحو حقول الحبوب المحيطة بها ونحو بساتين النخيل. والمياه الداكنة الصافية -كما تبدو داخل الحفر نفسها - تجرى في أنهار ضحلة مترقرقة وبنفس الشفافية التي تتصف بها مياه الخرج ولكن نقاط الاختلاف بين المجموعتين صارخة كما هي نقاط التشابه. يوجد هنا من الحفر مالا يقل عن سبع أو ثمانٍ إن جاز لنا أن نحسب الحفر التي لا يوجد بها ماء الآن، والتي امتلأت بالتراب. كانت حفر الخرج الثلاثة ذات أحجام متقاربة، وكانت مساحة السطح في المتوسط ٦٠٠٠-٧٠٠٠ ياردة مربعة، ولكن تلك الموجودة في الأفلاج كانت متباينة، تبدأ من حفر جدّ صغيرة طولها عشر ياردات وعرضها ثلاث على السطح، وتتدرج المساحة حتى تصل لمساحة بركة عادية طولها ثلاثة أرباع الميل وعرضها ربع ميل، في أعرض أجزائها.

كانت مستويات الماء في هذه الحفر أقرب للحافة مقارنة بمستودعات الخرج باستثناء عين أم خيسة، بينما كانت الحوائط الداخلية الشاهقة لعين الضِّلْع وعين سمحة مشابهة لاثنين فقط من عيون الأفلاج. وأخيراً بينما كان ترتيب الحفر في الخرج عشوائياً دون أن تبدو بين الثلاثة صلة، كانت تلك الموجودة في الأفلاج

متقاربة جداً ومـرتبة بعد فواصل بطول محيط قوس طويل وكـأنها سلسلة متصلة، إن لم تكن دلالة على أنّ كلّ المجموعـة كانت حوضاً واحداً يوماً مـا - كما يمكن أن يكون هذا حالها الآن تحت السطح- ومن ثمّ انفصلت لتكوّن وحدات مختلفة. إنّ الطمـر الكامل لما يبدو أنه كـان إحدى هـذه الحفـر - وأبعادها ليـست قليلة- والحجم المتناهي الصغر لأخرى قد يعني أن عمليات فصل قد جرت في الماضي أو أنها ما زالت جارية. ولكن لا ينبغي لي أن أتعـدّى على مجالات تقع خارج مدى البصر، ويكفي أن نسجّل الحقائق كما هي.

كان القوس الذي تصطف فيه الحفر يقع بالتقريب بين الشمال والجنوب. بينما كانت أطراف القوس تشير نحو الغرب على رفٍّ فوق الهضبة، وتقف خلفه صخرة شاهقـة غير منتظمة الأبعـاد، أطول وأكثر أقسـامها ارتفاعـاً تجاور الطرف الجنوبي للرّفّ وكانت تحيط بالبحـيرة التي ذكرتها من قبل وهي آخر المسـتودعات المائية من الجانب الجنوبي وتسـتمد اسمـها: أم الجبل من حقـيقة أن الصخرة تنـحدر بحدة لعمق عشرين أو خـمسة وعشرين قدماً نحـو الطرف الأعلى للساحل ذي المنحدر اللطيف الذي تغطيه الحصباء، وهو الذي يجري للحافة الشرقية للبحيرة.

هذه البحيرة هي بلا منازع أكـثر المعالم الطبيعية روعة بالأفـلاج، بل بالتأكيد في كل الجزء الداخلي من الجزيرة العربية حـيث لا توجد أسطح مائية أخرى ذات صفة دائمة بهذه الأبعاد. حدث في أزمـان سابقة أن زار الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة العرب زوار أوربيون، وأوردوا -بناء على معلومات سـماعية محلية- تقارير عن وجـود بحيـرة عظيمـة في مكان ما في الأجـزاء الداخلية للجـزيرة العربـية، وأطلقوا عليها اسم بحر سلوم، وبناءً على ذلك قـام راسمو الخرائط بوضع بحيرة هائلة المسـاحـة على خرائطهم مـع تعليل وجودها بأنهـا نتجت عن تدفق مـيـاه

وادي الدواسر في حوضها الفسيح. وكان تطبيق معـايير علمية أكثر حزماً، إضافةً لسكوت بعض المكتـشـفين البارزيـن عن ذكر هذا الأمـر، أمـثال بيـرتون وداوتي وبوركـهارت وآخرون ممـن كانت لهم المقـدرة على استنبـاط وتمحيص المعلـومات المحلية، أدى سكوتهم عن الأمر لرفع هذا المعلم عن الخرائط ذات السمعة الحسنة، استناداً على أنه معلم وهمي. بيد أن راسمي الخرائط القديمة كانوا في حقيقة الأمر أقرب للحقيقة من خلفائهم.

زعم بلجـريف أنه زار الأفـلاج أثناء تجواله، وكـان يمكنه أن يجنب راسـمي الخرائط خطأه وخطـأ الأجيال التي تبـعته، إذ مـرّ بالجانب الآخـر وترك لي شرف إعادة بحيرة الجغرافيين القدامى لخارطة الجزيرة العربية مجدداً، رغم أنها في حقيقة الأمر ذات أبـعاد مـتوسطة إذا مـا قورنت بتلك التي رسـموها في السـابق، كـما تختلف عنها في نواحٍ أخـرى. إنّ ما يدعو للدهشة أنّ وجود مثل هذه الـبحيرات ومجموعة المسـتودعات المائية في الخرج والأفلاج بقيت كلّ هذا الوقت مسـتعصية على اكتشـاف الرحالة والمكتشفين الكثـيرين الذين لا يعرف الكلال إليهم سـبيلاً، والذين تمكنوا من على البـعد، وبناءً على مـعلومات الأهالي المحليـين وحدها أن يضعـوا على الخارطة مـجمـوعة واحـات الأفلاج ووادي الدواسر - إن لـم نذكر الأخريات - قريباً جداً من مواقعها الحقيقية.

ولا بد لي أن أعتـرف أنني كنت أجهل وجـود هذه المستـودعات المائيـة حتى وجدت نفسي على حـافة حفر الخرج. ولـكن لا يصعب - في اعتقادي- مـعرفة الأسباب التي أدّت لهـذا الوضع الشاذ: في المقام الأول: فإنّ العرب يسمُّـون حفر المستـودعات هذه العيون أي الينابـيع ولا يبذلون جهداً للتـمييز بـينها وبين الينابيع

العاديـة الأخرى التي توجـد في الأصقاع المخـتلفة، وثانيـاً: المدهش حقـاً هو قِلّة العرب الـذين تجشمـوا مؤونة الحـضور لزيارة هذه المعـالم من خارج المنطقـة التي تغذيها هذه المصادر المائية. وهذا ينطبق أكثر على حفر الأفلاج، إذ أنّ عيون الخرج معروفة بدرجة أكبر.

وتتـخذ بحـيرة أم الجـبل - إلى حدٍّ مـا - شكل الحدأة، مع ذنب مـستـدق وأجنحة ملحوظة تمـتدُّ على الجانبين في الجزء الجنوبي. إنها تـقع في قاع منخفض ضحل فـسيح، وتغطي المسـاحة التي تحفّ بجـوانب الماء أعشـاب وفيـرة ونباتات البردى والقـصب التي رأيت في وسطها أبقـاراً قزمية تـرعى. ولاحظت أيضاً في طرف البحيرة الشمالي -ولكن فوق مستوى الماء بمسافة- انخفاضاً لمجرىً ينحو في اتجاه الشرق ولعله كـان قناة أو مجرى مائيـاً في الأيّام التي كان مستوى الماء فـيها يصل إلى مستويات أعلى. وإن كان الأمر كذلك فلا بدّ أنها هُجرت عندما انحسر الماء عنها نتـيجة لفشل الينبـوع الذي يغذيها إذ أن البحـيرة توصف الآن بالموت أو السكون، ولذلك لا فائدة منها لأغراض الرّيّ إلاّ إذا استُخدمت وسائل آلية لتغذية القنوات التي تنحدر منها.

وتوجد فـي الطرف الشمالـي أرض عالية تطـلُّ على مشهـد شامل للمنـطقة المحيطة، ورأيت من هناك بعيداً إلى جهة الشرق حافة البياض المهجورة والتي يُقال أنّ أقرب أطرافها في هذا الاتجاه يبعد مسيرة يومين عن هذا الموقع، أي حوالي ٥٠ ميلاً، وتحتلُ المساحة بيننا وبينها قفارُ الغـضرا ذات الحجارة الجيرية والتي قد تحتوي -أعماقها التي لم يكتـشفها أحد- على بحيرات وحفر شـبيهة بتلك الموجودة على حافتـها الغربية، رغم أن هذا احتـمال بعيد. وتقع مـجموعة واحات الخـرفة نحو الغـرب، والبديـع إلى الجنوب منهـا، وتبدو على البـعـد سلسلة تلال باهتـة من

مرتفعات طويق؛ وإلى الشمال تقع ليلى والسيح، وإلى الجنوب مروان والواحات المجاورة.

وتجاور البحيرة من الناحية الشمالية أصغر اثنتين من حفر الأفلاج وهما قريبتان لبعضهما في وسط فناء معشب، وتُسَمَّيان معاً أم الحبّاب وكل منهما ميتة، إذ أن الينابيع التي كانت تغذيهما قد توقفتا عن العمل، ولقد بحثت دون جدوى عن مؤشرات قد توحي بأنهما استُخدِمَتَا من قبل لأغراض الرَّي. إحدى هاتين هي الحفرة المتناهية الصغر التي أشرت لها من قبل، بينما الثانية بيضوية الشكل، طولها حوالي ٦٠ ياردة وعرضها في أوسع المواقع يبلغ ٤٠ ياردة.

يأتي تالياً في الترتيب مستودع دائري يسمّى أم العظمان وقطره حوالي ١٠٠ ياردة، ومن طرفه الشمالي تجرى قناة مخفيّة لتؤدي دوراً حيوياً فيما تبقى من نظام الرَّي القديم. وترتفع حوائط المستودع المائي لمسافة ستة أقدام تقريباً فوق مستوى سطح الماء بكل الجوانب، كما أنّ الطرف الأعلى من القناة المخفيّة والتي تتخللها - بعد فواصل - فتحات الريّ الدائرية العمودية، والتي كانت تحت مستوى سطح الماء بمسافة كبيرة، وقالوا لي إنها تبلغ أربع قامات. ولابد أن الينبوع الذي يعتمد عليه المستودع مفعم بالحيوية حتى يستطيع أن يحافظ على مستوى الماء بهذا الارتفاع فوق المخرج الذي يصرِّف المياه، ولكن الإهمال الطويل للخرز [قناة الري] قد أسهم بلا شك في تقليل سرعة سريان الماء فيه، وبالتالي في الحفاظ على مستوى عالٍ من الماء في المستودع.

يقع إلى الشمال من هذا المستودع المائي، وفي مكان ما بالقرب من النقطة المركزية لمحيط القوس تجويفٌ معشب كبير، ولكنه الآن جاف تماماً رغم أنّ اسمه أم الضيابة، كما توجد قناة ري مفتوحة مهملة تتجه شرقاً من طرفها الجنوبي ولا

تختلف عن تلك التي وصفتها عندما تحدثت عن البحيرة العظيمة، وهذا يدلُّ على أنها كانت في زمان مضى مستودعاً كمثيلاتها. تؤيّدُ الروايات المحلية هذه الرأي، إذ يقولون إنّ القناة المهجورة حفر فيها آل مرة ليزودوا مخيمهم بالماء استعداداً للرحلة التي تستغرق أربعة أيام عبر الصحراء الرملية العظيمة في الأيام التي كان خلافهم فيها مستعراً في المنطقة، وحين كانت ترجمة هذا الخلاف لأعمال عدوانية ممكناً أكثر مما هو الآن تحت المراقبة اللصيقة لابن سعود. إن كانت هذه الرواية تستند على حقائق ثابتة فهذا يعني أن المستودع كان مستخدماً في عهود قريبة نسبياً. والرواية قد تكون مختلفة، ولكن وجود القناة نفسها يشكّلُ برهاناً كافياً لصحة النظرية القائلة بأن المنخفض لا بد أن يكون قد احتوى على الماء في الماضي.

كنت بلا شك سأنال ثمرة تجشم العناء إن تتبعت القناة في الصحراء حتى نهايتها البعيدة، إذ كان من المحتمل أن أكتشف مستوطنات مهجورة من الماضي. ولكن لضيق الوقت استبعدت هذه الفكرة، هذا؛ إن لم أذكر عدم رغبة رفاقي لتحمّل المشاق التي كانت ستنجم من تنفيذها. لقد كان اليوم الذي قمنا فيه بهذه الرحلة للمستودعات المائية أحد أكثر الأيام التي قضيناها في الأفلاج حرارة. كنا في منتصف شهر مايو (أيار) في خط عرض ٢٢ْشمال، وكانت أشعة الشمس تهوي بحممها عمودية على رؤوسنا. ورغم كل محاولات رفاقي لاختصار التجوال بين المخلفات البالية لمملكة كانت عظيمة فيما مضى، تمكنتُ من إبقائهم في العراء حتى بقيت ساعة واحدة لبلوغ منتصف النهار، فهم جوعى وعطشى إذ كنا قد غادرنا مخيمنا بعد الفجر بقليل. كان لدينا مرشدان تكرّم الأمير بتخصيصهما لهذا الغرض، أحدهما - اسمه محمد كان داكن البشرة وهو دوسري فظ، والآخر

-سعـد- وهو قحطاني مرح قـصير القامـة. وعندما رأى هذا الأخيـر عزمي على البقـاء هناك لأطول فترة أسـتطيعها انصـرف بكليته للعـمل، وكان يوجه انتـباهي بالغمز أو الإشارة كلما لاحظ أن رفيقه قد استلقى. ولم يحاول بقية رفاقي، وهم إبراهيم ورشيد ومترك وثلاثة أو أربعة آخرون إخفاء ما أصابهم من ملل، أو نسيان حاجتـهم لتناول الإفطار. وبعد أن رأينا الينابيع الثـلاثة الأولى، أي تلك الموجودة في الطرف الشـمالـي للقوس قـال لي مـحمـد: «لقـد رأيت الآن الينابيع، دعنا نذهب». لقد كان يـبدو جائعاً للحد الذي لا يسـمح له بالإدلاء بالحقيقـة، وفعلاً وبعـد قليل من التـحقـيق والتـهرّب من الإجـابة، قـال لي: «إن هناك المزيد من الينابيع، ولكنهـا جد بعـيدة». وبغمـزة من سعـد علمت أنه كان يكذب مـجدداً بخصوص مواقعها. وقلت: «انظر، إن الأمـير قد أخبرني أن هناك ينابيع عديدة، ولقد رأيت ثلاثة منها فـقط؛ ووالله لن أفطر حتى أراها جميعـاً، فإن كنت تعرف مكانهـا خذني إليهـا، وإلاّ فإنني سـأبحث عنها حـتى أجدها». كـان هذا كافـياً لمحمد. لقد كانت بقية الحفر والبحيرة في الجوار.

أخبرني الأمير والآخرون أنّ الأفلاج ووادي الدواسر يتـمتعان في حقيقة الأمر بصيف أكـثر اعتـدالاً مقارنة بالشمـال وقالوا: «كل ما تجنب تـبرّد»، ومهمـا كان السبب وراء هذه الظاهـرة الغريبة فـلا بدّ أن أقرّ أنّ تجربتي خـلال هذه الرحلة قد أثبتت صِحّـة هذا الرأي. وحقيقـة أخرى علَّلُوا بها انخفـاض درجات الحرارة هذا العام بصورة غير معهودة، وهي أن أمطار الشتاء كانت غزيرة بصورة استثنائية. لقد جرى السـيل في باطن الأحمر سـبع مرات خلال الموسم الذي انقـضى قبل وقت قليل، وقد برّد السطح الـذي تمرّ فوقه الرياح في هذه الأيام ويصـحب ذلك هبوط

في درجات الحرارة. كانت الرياح الجنوبية أقلّ فعالية في هذا المضمار من النسمات الشمالية التي كانت على الدوام منعشة وجدّ باردة في بعض الأحيان.

وكانت المستودعات الثلاثة المتبقية تقع خلف تجويف أم الضيابة إلى ناحية الشمال في صقع معشب يبلغ طوله نصف ميل. وكان أبعدها في اتجاه الجنوب وهي أصغرها، وتتخذ شكل بركة دائرية تقريباً يبلغ طولها حوالي خمسين قدماً، ويقل عرضها عن ذلك قليلاً، ويحيط بها حائط منخفض لكنه حاد، ويرتفع لقدمين فوق مستوى الماء بكل الجوانب باستثناء الجنوب حيث يوجد جانب من تلٍّ صخري شديد الانحدار، يبلغ ارتفاعه حوالي اثني عشر قدماً تهوي بحدّة لحافة الماء. يعرف هذا المستودع باسم أم الجرف في إشارة للمنحدر الحاد الذي تحدثنا عنه. ولم ألاحظ وجود فتحات خارجية تسمح بانسياب الماء إلى خارجها، وأحسب أنّها تُعدُّ من الحفر الميتة.

يُعرف كلٌّ من المستودعين الآخرين باسم البحرة، وهما مسطحان مائيان حيّان متوسطا المساحة مع ميل إلى الكبر . يكوّن المستنقع -الذي يقع إلى الجنوب- شكلاً نصف دائري وغير منتظم بطول ٥٠٠ ياردة وعرض ٦٠ ياردة، بينما يقل الثاني عن الأول أبعاداً، حوالي ٣٠٠ × ٥٠ ياردة وهو بيضوي في شكله تقريباً. ويقف الحاجز في كل منهما مرتفعاً لقدم واحد فقط فوق سطح الماء ويزهو بحُلَّة عظيمة من القصب والأعشاب الخضراء، ولكلٍّ فتحة في جانبها الشمالي يسيل عبرها الماء نحو قنوات الري ترى فتحاتها الدائرية بارزةً فوق الرمال المتحركة التي تنتأ من الصقع الرملي الذي لاحظنا وجوده على بعد أقدام قليلة من حدود هذه المستودعات. ويقارب عمق الفتحات الدائرية العمودية نحواً من أربعين قدماً في الطرف الجنوبي للمجرى الذي تتراكم فوقه الرمال لتكوّن شطاً عالياً، بيد أنّ

ارتفاعه يقل تدريجياً كلما تتبعناه بعرض الشط الرملي، وبعد ميل تقريباً تختفي الفتحات العمودية، ويصبح المجرى مكشوفاً حتى يبلغ السيح. ويسمون هذا المجرى عين سمحان، ويعد الفرع الرئيس لنظام الرّي الذي ما زال فاعلاً. تلك القنوات التي تبدأ من البحرة الجنوبية وأم العظمان تمرّ تحت الحاجز الرملي لتقترن بسمحان في نقاط عديدة بطول مجراه. وأما المجاري المكشوفة التي تتكوّن بعد عبور الرمال - وهي فيما يبدو أربعة - تطلق عليها أسماء تحاكي وتذكّر بأسماء قنوات الأحساء الجارية: مجسور، وجّاج، برابر، ومنجور، بهذا الترتيب من الجنوب للشمال. وبعد نقطة التقاء منجور- وهو الأخير - مع سمحان يقترب المجرى من مجرى باطن الأحمر، وبعد ذلك يجري موازياً له حتى يصل كلاهما للمساحات المزروعة في السيح.

وواحة السيح هي المستوطنة الوحيدة التي تبقّت على قيد الحياة من المستوطنات التي كانت تعتمد على نظام الري المتجه شمالاً، وهي المستوطنة الكبيرة الوحيدة الباقية من كل مستوطنات الأفلاج القديمة، وهي في الوقت نفسه أكبر الواحات وأكثرها ازدهاراً في كل الإقليم، وتدين ببقائها الذي لا بد أنه كان متصلاً عبر الأزمان -كما تدين بوضعها المهيمن كمركز زراعي- للظروف التي جعلتها لحسن طالعها لا تعتمد في الماضي أو في الحاضر على عامل وحيد من العوامل التي تتحكم في الثروة في الإقليم منذ البداية. وكان موقعها المميز -الذي جعل مجرى السيول في باطن الأحمر، ومجرى سمحان المستديم يحيطان بها من الجانبين- قد أمكنها من الاستغناء عن أحدهما إن اقتضت الظروف دون تأثير كبير، وفقاً لما كانت عليه أحكام المناخ في السنين المتعاقبة، كما كان يمكنها الاعتماد على الري الصناعي من المستودعات المائية لتتجاوز بها فترات الجفاف وإن طالت ولتتغلب بها

على ما قد ينجم عن تراجع معدّلات الأمطار في الأراضي المرتفعة في منابع السيول. كما كان يمكنها الاعتماد على السيول لتسقي بساتينها إن احتلّ عدوّ المستودعات وحطّم مجاري الأدوية أو غيرّ مسارها. وكان حسن الطالع هو الذي عصمها من تطابق كلّ الظروف السيئة التي تمنع عنها كل مصادر الماء والتي كان يمكن أن يضرّ بها ضرراً بليغاً.

بعثنا برسالة في المساء من ليلى لزعيم عائلة الأشراف نخطره فيها برغبتنا في تناول الإفطار معه. وكان محمد دليلنا الفظ يؤيد بحماسة أن نتوجه مباشرة للقرية عبر الطرف الجنوبي القصي للواحة بعد أن فرغنا من زيارتنا لمنطقة المستودعات المائية ولكن خططه المبنية على الخداع ملأتني بالعناد والرغبة لمعارضة أي اقتراح يصدر عنه. لذلك تركنا مجرى سمحان لنتتبع المهد الرملي العريض لباطن الأحمر متوجهين نحو الطرف الشمالي لبساتين النخيل. وينقسم مجرى السيول إلى فرعين قبل أن يبلغ الواحة بقليل، ويجري أحد الفرعين إلى اليمين إلى داخل حيش كثيف من النخيل، بينما يواصل الفرع الآخر مساره في الاتجاه الشمالي الشرقي يحفّ بالطرف الشمالي للواحة جارياً بينها وبين بستان نخيل مسوّر يسمى الطويرقي ويتوسطه قصر ضخم جيد البناء. كنا قد تتبعنا هذا الفرع حتى وجدنا أنفسنا على الجانب الأقصى من الواحة، وسرنا بطول حافتها نحو الجنوب لقرية الأشراف الصغيرة، وهكذا اتخذنا طريقاً كاد -بعد أن بلغنا غايتنا- أن يصير دائرة كاملة حول المستوطنة، ولكن في طريق عودتنا لليلى سرنا عبر قلب الواحة التي حملت معي عنها انطباعاً عاماً بدا جيداً.

تقع واحة السيح على بعد حوالي أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من ليلى، وثلاثة أميال شمال منطقة المستودعات المائية، وتكوّن شريطاً من بساتين نخيل

كثيفة، ويمتد لميلٍ ونصف من الشمال للجنوب، بعرضٍ لعله يبلغ نصف ميل في المتوسط. تسقي سيول باطن الأحمر الجزء الشمالي من الواحة ويُتحكم في مياهها -في موقع انقسام المجرى إلى فرعين- باستخدام سدّ غير منتظم من التراب والأغصان المقطوعة ويحول حسب مقتضيات الضرورة لتحويل انسياب الماء بين الفرعين. كان الفرع الذي اتبعناه يُستخدم عادة لتصريف المياه الزائدة في أوقات السيل العظيم، بينما كان الفرع الآخر والروافد الكثيرة التي تخرج منه إلى داخل الواحة تُستخدم لأغراض الرَّي. وكانت السيول الاستثنائية هذا العام قد فاجأت الزُّراع أثناء نومهم ومرت بكميات جد كبيرة وبعنف كاسح إلى داخل بساتين النخيل، فتركت آثارها في المستوطنة بتكسير الحوائط الفاصلة بين البساتين وانتزاع السياجات والبوابات وما إليها. ويسقي وادي سمحان الجزء الجنوبي من الواحة وهو حزام متصل من نخيل عظيمة يوليها أهلها كل عناية.

يقسم طريق مركزي يسمى سوق الحيش الواحة طولياً إلى نصفين تقريباً، ويبدو أنّه الحدّ الفاصل بين المجموعتين اللتين تقتسمان حقوق الملكية في المستوطنة بنسب متقاربة: عنصر الدواسر الذين يقطنون إلى شرق الطريق، والأشراف والملاك العبيد إلى غربه. ويبلغ عدد أسر الأشراف حوالي ثلاثين ويكثرون في معية مواليهم والمزارعين في قرية السيح أو السيح الأقصى، كما يسمونها دائماً في الطرف الجنوبي للواحة، بينما يسكن الملاك وهم في الغالب من قسم القصيم، قرى الزيدي والفويْضِليَّة في الركن الشمالي الغربي للواحة، وفي أكواخ متناثرة بين البساتين. والملاك من الدواسر هم في الغالب بدو غائبون عن القرية، من مجموعات آل عمار وتميم وقينان، ويزرعون بواسطة مزارعين عبيد، رغم أن عائلات قليلة من آل حامد الذين كانوا قد انضموا لتنظيم الإخوان قد استوطنوا

بصفة دائمة في قرية متناهية الصغر تُسمى قصور خلف، بين السيح والقطين التي تسمى أيضاً السيح الأدنى، وهي قرية تقع في زاوية من حزام بساتين النخيل الواقعة في الجهة الشرقية للواحة. أمّا القطيْن فهي رئاسة آل عمار وجماعات أخرى من الملاك البدو الذين يشكلون أيضاً سكان قرى أثمرة ورفاع وقصر المناعي في الحافة الشرقية للرقعة المزروعة، ويشاركهم المكان زُرّاعهم من العبيد. ويشكل العبيد الأحرار غالبية سكان الواحة، ولعلّ عددهم الكلي يبلغ ٣٠٠٠ نسمة. لقد سكنوا في هذا الموقع لأجيال كثيرة متعاقبة، إذا جاز لنا أن نحكم من مظهرهم العام فلا بد أنهم قد تهاجنوا مع جيرانهم العرب بدرجة كبيرة رغم أن التزاوج بين العرب والعبيد أو بين العرب والخلاسيين سواء كانوا رجالاً أم نساء قليل الحدوث، ويُنظر إليه بازدراء. وقد يبلغ عدد الأفراد المكونين لأسر الأشراف ٢٠٠ إلى ٣٠٠ نسمة، ويعتمد ٢٠٠٠ آخرون منهم على الواحة لإمدادهم بالتمر والحبوب التي يأتون في الموسم للمطالبة بنصيبهم منها. هكذا يبلغ التعداد الكلي للواحة حوالي ٦٠٠٠ نسمة يسكن منهم ٤٠٠٠ فقط بصفة دائمة.

إن عماد القرية هو بلا ريب محصول التمر، واشتُهر تمرها بالامتياز. ويفوق عدد العينات المزروعة هنا عددها في أي مكان آخر بالإقليم، رغم أنّ أهم هذه العينات هي تلك التي أشرنا إليها من تمور ليلى[1] إضافة للتمر، فإن هناك الكثير من الحبوب والبرسيم والعصفر والخضراوات المختلفة، كما يُزرع القطن في أماكن متفرقة رغم أن الملابس المنسوجة محلياً لا يلبسها سوى أكثر الناس فقراً، كما تنمو شجيرات العنب والرمان وأشجار الفاكهة الأخرى جيداً تحت ظلال النخيل. وقد تزايد في الآونة الأخيرة الاتجاه لحفر الآبار لأغراض الرّي لدعم مصادر الماء

(١) راجع المتن، ص ١١٤ . (المؤلف).

المذكورة سابقاً ونتيجة لهذا تزداد مع الأيام الرقعة المزروعة، ويعود الفضل في هذا لعدد من الباحثين عن الاستثمار من تجار ليلى الذين عندما شعروا بالأمان في السلم الذي أتى به حكم ابن سعود للبلاد، أصبحوا يبتاعون الأرض كلما وافق سكان السيح على بيع جزء منها. ويبلغ عمق الماء في آبار هذه المنطقة حوالي ثلاث قامات.

كانت قرية القُطَيْن فيما مضى مسوّرة كما كانت أكبر مما هي عليه الآن، إذ أنّها دفعت الثمن لدورها في إيواء المتمردين في الحركة المجهضة في عام ١٩١٢م، وبعدها لم يُعَدْ بناء السور الخارجي مجدداً. وعدد البيوت بالقرية حوالي ١٥٠ بيتاً تنقسم إلى كتلتين لا تتخذان أشكالاً محددة وتقعان على جانبي أحد فروع باطن الأحمر. فضلت مجموعة كبيرة من سكان القطين السابقين البحث عن أرض جديدة يقيمون عليها دورهم بدلاً عن إعادة بناء ما تهدّم، وكانت النتيجة أننا نرى قرى صغيرة حديثة هي قرى أثمرة ورفاع المتجاورتين والواقعتين خارج الحافة الشرقية للنخيل مباشرةً، للدرجة التي يحسبها المراقب مستوطنة السيح نفسها، والتي بقينا بها عدداً من الساعات قبل أن نعود لمخيمنا بعد زيارتنا للمستودعات المائية.

ترجلنا أمام القرية الصغيرة غير المسوّرة التي تبرز إلى خارج النخيل من حافة السهل العاري في شرق الواحة، وسرنا بطول طريق ترابي لمسكن محمد بن فهد أمير الواحة وشيخ الأشراف المحليين. كان مبنى فخماً إذا ما قورن بالبيوت الطينية التي تحيط به، ولكنه كان مثلها من الطين المجفف ومن خلال الطرف الأبعد من فناء صغير محاط بسقيفات أو إسطبلات، دلفنا عبر باب كبير لصالة تتخذ شكل

الحرف الإنجليزي (T) وتستخدم كقاعة للقهوة، وهي كل ما رأيته من المنزل بالداخل. وتحتوي القرية الصغيرة إضافة لمسكن الأمير على مسجدين صغيرين وقليل من المتاجر الصغيرة التي تكوّن السوق، و ٢٠٠ دار سكنية.

وكان مضيفنا محمد شيخاً بحق. يبلغ من العمر ثمانين عاماً ولكنه كان مرحاً ودوداً متوسط الطول، ذا هيكل نحيل قوي ومظهر يوحي بالرزانة. لقد كان بلا شك يبدو أصغر سناً من ابن أخيه الطويل المقوّس الظهر، الشديد الهزال وهو فهد ابن عواض بن فهد الذي كان يساعده فيما تقتضيه واجبات الضيافة. وادّعى الأخير أنه لمّا يبلغ الأربعين من العمر بعد، رغم أنه يبدو حقيقةً أقرب إلى القبر من عمّه المسنّ القوي، إذ أنّ الاثنان ارتحلا إلى الرياض بعد مغادرتنا للأفلاج مباشرة عندما كنّا في طريقنا للجنوب فأصابته وعكة بعد بلوغه العاصمة وتوفّي بها قبل أن نعود نحن إليها.

لم ألاقِ طوال إقامتي بالجزيرة العربية ترحيباً وكرماً ومبالغة في الاستضافة بقدر ما لقيته مجموعتنا في هذه الدار الودودة المرحبة. كان إبراهيم قد تغنى لي بكرم وصفات ذلك الشيخ دون أن يبخل عليه بمحاسن الأوصاف، ولكنّ تقريظه لم يكن ليوفي الرجل حقه. لقد كان كرم محمد مضرب الأمثال في الشرق كله حتى بالمقارنة بعهد حاتم الطائي نفسه. وهنا في قلب الجنوب وقف رجل لا يهاب شيئاً ، غير ملتزم بالتعاليم السائدة، يعلن ويمارس عقيدة أسلافه التي لم تكن عقيدة جيرانه. رجل مستقيم في كل تعامله الذي كان يستفتي فيه ضميره وليس ما يراه الناس، مفرط الكرم إزاء الفقراء والمحتاجين، وافر الشهامة كما أثبتت أفعاله أثناء تمرّد عام ١٩١٢م. لقد اعترف بعدها بجرمه بأن فرَّ عندما ظهر ابن سعود. وفي يوم تنفيذ أحكام الإعدام في ليلى ظهرَ بطريقة مفاجئة أمام الملك

وأمام الملأ واضعاً حبلاً للشنق في عنقه ولم يطلب شيئاً سوى العقاب على ما قام به. ولكن دماء الشهامة تجري بنقاء لا مثيل له في شرايين بني عنزة[1] إذا ما قورنوا ببقية العرب، وما زال ابن فهد يحكي كيف أنّه هُزم هزيمة كبيرة في ذات المجال الذي يجيده؛ مجال الشهامة إذ تفوق عليه العاهل الملك بأن عفا عنه. وليس لدى ابن سعود الآن من هو أكثر ولاء منه ولا مستشاراً أحقّ بثقته. وعندما عدت راجعاً إلى الرياض تمتعت بلقائه مرَّة أخرى في ديوان الملك، وتمتعت بالاستماع لمناقبه تُمتدح أمام الملأ بواسطة ابن سعود. كان الذي يدهشني على الدوام كأحد أهم مزايا الحكم السعودي هو ضمُّه لكثيرين ممن أدوا أدواراً قيادية في معارضة سيادته وحكمه، ولكنهم عادوا لخدمته نتيجة للصفعات الموجعة التي تلقوها منه في ميدان المعركة ولشهامته حيالهم في ساعة نصره. لقد كان هذا درساً آخر استمدّه من إخفاقات أسلافه.

كان مظهر محمد الخارجي يخفي قلباً في صفاء الذهب. ومرَّت الساعات القليلة التي قضيتها في قاعته المضيافة كهنيهة خاطفة في واحة باردة تحيط بها بيداء العلاقات الإنسانية العربية القفر قبل اثني عشر جيلاً أتى أسلافه - فرع من أشراف اليمن - من ديارهم في جوار نجران استجابة لقوة الدفع التي دفعت بفائض السكان منذ عهود قديمة من جنوب غرب الجزيرة العربية في انسياب مستمر نحو الشمال الشرقي عبر شبه الجزيرة الصحراوية[2]. يقول المثل «اليمن رحم (أو مهد) العرب

(١) يبني المؤلف هنا كلامه على أن الملك عبدالعزيز من عنزة والصحيح أن آل سعود من بني حنيفة. (المراجعون).

(٢) أما الروايات التي يتناقلها الأشراف في نجد فتقول إنهم من الحجاز وقدموا منه في أزمنة متباينة، أرجعها البعض إلى القرن الثالث الهجري في المدة التي حكم فيها الأخيضريون منطقة نجد. (المراجعون).

والعراق المقبرة»[1] أتوا إلى الأفلاج بحثاً عن ديار جديدة، ووجدوا نظام الرّي القديم في حالة خربة رغم أنه كان قابلاً للإصلاح، فاستقروا بين بساتين السيح التي أصبحت ملكهم؛ جزء منها انتزاعاً وجزء آخر بالشراء من الملاك الدواسر الذين أتوا في الوقت نفسه معهم أو سابقين لهم. وتمتلك العائلة في الوقت الحالي حوالي نصف الواحة بعد أن فقدوا أجزاء من ميراثهم بالبيع للمضاربين المستثمرين من أهل ليلى. كانت إجابة مضيفي «نحتاج ونبيع»، بطريقته الصريحة المميزة رداً على تعبيري بالدهشة لتفريطه في البساتين الغنية التي كانت في حيازته. وحكى لي أنه عندما كان شاباً - قبل سنوات عديدة- زار الرياض مصاحباً لوالده، وهناك رأى الإمام عبد الرحمن الذي كان حينها رضيعاً يحمله موالي القصر، ولا بد أن مولده هو نفسه كان في حوالي عام ١٨٤٠م عندما احتلّ ابن ثنيان عرش نجد، وليس كما أعلن هو نفسه - في عهد الإمام تركي الذي سبق ذلك التاريخ بعشر سنوات أو أكثر[2].

عندما جلسنا متكئين على الحوائط في القاعة بالقرب من الموقد، أداروا علينا أقداح القهوة والبخور على فترات متقاربة، وكانت القهوة من البن اليمني الحقيقي، إذ لا يحتمل أحد أي نوع آخر من البن في جنوب الخرج. وكان رجال القرية يأتون من حين لآخر لارتشاف قدح من القهوة ولسماع الأخبار. لم تكن الحرب تهمهم إلاّ قليلاً إذ كانوا راضين عن عزلتهم طالما استمرت حركة القوافل منسابة، وهي التي تجلب البن إلى داخل البلاد من اليمن البعيدة، وتعود إليهم

(١) «اليمن رحم والعراق قبر العرب» في بعض الأحيان تستبدل بكلمة «رحم» كلمة «مهد». (المؤلف).

(٢) كلام المؤلف هنا غير دقيق لإن الإمام عبدالرحمن ولد في عام ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م) وعبدالله بن ثنيان تولى حكم الرياض خلال الفترة ١٢٥٧- ١٢٥٩هـ (١٨٤١-١٨٤٣م). (المراجعون).

بالأقمشة والسكر من موانئ الأحساء. وأثارت البوصلة وآلة التصوير اللتان أحملهما فضول الجميع ولكنهم لم يتمكنوا من استيعاب الغرض من آلة التصوير التي افترض محمد أنها نوع من المقرب (التلسكوب)، ولقد أفاض عليّ من الشكر والعرفان عندما وعدته بإعطائه منظار ميدان هدّية له، وهو وعد أنجزته فور عودتي للمخيَّم. وكان الأثاث الوحيد الموجود بالقاعة هو حصائر خشنة مصنوعة من سعف النخيل مدت على الأرض بزيادة سجاد وسرج جمل وُضِعَا على شرفي. وجلس محمد وابن أخيه قبالتي بالقرب من الموقد يضطلعان بمسؤولية عمل القهوة ويتناوبان الاختفاء من القاعة إذ كانوا يُعِدُّون إفطارنا. ولكنهم أحضروا في البداية طبقاً ضخماً من التمر وقصعة من اللبن المخثّر البارد المنعش، وهو ما شربنا منه كثيراً. ثم جاؤوا بالوليمة يسبقها بساط دائري جد كبير، وبعد أن فرشوه في وسط القاعة ظهر الموالي يحملون إناءً دائرياً مسطحاً قطره حوالي ثلاثة أقدام وبه مقدار من ثريد قمحي يتصاعد بخاره، طُبخ في اللبن، وقطع من الخبز المخضل في اللبن، وفوق هذا أضافوا «السمن» بسخاء من قصعة خشبية، وفي النهاية أحضروا إناء اللحم؛ أطراف شاةٍ كاملة كوّموها فوق الثريد القمحي أو «الجريش» كما يسمونه، وهو شبيه بالبرغل الذي يؤكل في سوريا أو «لقيمي» نجد.

قال مضيفنا: «سَمّ» وبعدها انسحب هو وابن أخيه مكتفياً بالراحة النفسية التي تجلبها عليه رؤيته لنا ونحن نهوي على طعامه الجيّد بشهية عظيمة أثارها طعامه نفسه. هوينا نحو القصعة الضخمة بعزم أكيد إذ كان الجوع قد أخذ منا مأخذه، وعندما نهضنا عن مائدة الطعام لم نخلّف وراءنا سوى العظام. وقلنا للمولى الذي أحضر لنا طَسْتاً لنغسل فيه أيدينا: «أنعم الله عليكم»، وبعدها عاد محمد ثانيةً

واحتلّ موقعه بجوار الموقد مستنكراً كلمات الشكر التي أسبغناها عليه، شارعاً في إعداد القهوة بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث. وعندما علم من إبراهيم أنني أدخّن أصرّ على ألاّ أقيم بيننا الحواجز فاستجبت بإشعال غليوني. كان هذا الموقف - رغم أنه يبدو صغيراً - نقطة أضفتها لمزاياه، بيد أنني لم أدخّن على رؤوس الأشهاد ثانيةً في كل الفترة التي قضيتها بالبلاد السعودية إلاّ لمرّة واحدة، وكان ذلك في القصيم. وقال مضيفنا: «والآن عليكم أن ترتاحوا»، وخرج ليعود ثانية بوسائد وبعض الأبسطة، ثم ذهب تاركاً إيّانا لساعة نمنا خلالها، وتم إيقاظ رفاقي لصلاة الظهر ثم أخذنا الإذن للانصراف من مضيفنا الذي يندر أن يكون هناك صنوٌ له في أي مكان، وبعدها عدنا لخيامنا في ليلى.

رأيت في الجنوب قريباً من السيح، وعلى بعد ميل واحد شرق مجرى سمحان بقايا مهدمة لما كان يوماً سوراً محيطاً به قلاع بالية. كان السور منتصباً في بعض المواقع، وكانت تغطي السهل بين هذه الخرائب الطينية وبين الوادي رواب من الحجارة والملاط تشبه النصب التذكارية. وكانت هذه الروابي تشبه تلك التي رأيتها في سلسلة تلال قصيعة في أعلى المستودع المائي: عين الضلع بالخرج. وكانت هناك مجموعة ثانية من خرائب مشابهة منتشرة حول مسطحات الحجارة الجيرية في منطقة الحُفر. قد يكون هذا المكان موقعاً لقرية عظيمة درست أو مقبرة من الماضي، ولعلها من أصل فارسي، إن جاز لنا أن نحكم من طبيعة نظام القنوات الموجودة بجوارها والذي يعطي مؤشراً لهوية أولئك الذين اخترعوه. ولكن الثابت أنه ليس هناك أثر مشابهٍ لها -سواء كانت مدينة أو مقبرة- في مصادر تاريخ العرب الذين أهملوا هذه الروابي التي انتشرت فوق مساحة شاسعة

وركزوا اهتمامهم على الحوائط الطينيـة والقلاع التي كانت جليّة واضحة رغم أنها كانت تحتل مساحة ضيقة، وقد تكـون من عهود حديثة نسبياً، ولعلهم بفعلهم هذا حافظوا دون وعي منهم على بقايا من عهد قـديم مما قد لا ينسب لأسلافهم، وقد لا تمتّ بصلة لبقايا النصب الـتذكارية، ولكن لعهود أسبق لتـاريخ الأفلاج، حيث أنهم يسمّون الخرائب قصيرات عاد، وتحكى عنهم القصة التالية:

حكم هذه الأنحاء في عهود بعيدة ملك عظيم يسمى عاد بن شداد الذي اتخذ وُبَار عـاصمـةً له، وهي على مـسيـرة شـهر في الرمـال الجنوبيـة بجوار حـدود حضرموت. وغَرَّت عاداً قـوَّتُه ومدى ازدهار مملكته فنسى الله. ورغم التحذيرات التي ساقها إليـه نبي الله هود فقد شرع في بناء عاصمـته كجنة في الأرض. وفي وسط الحدائق التي أقـامها لمتـعته أحـاط نفسه بحـراسة عظيمـة قوامهـا ألفان من المحاربين المختاريـن، واحتفظ في إسطبلاته بألفين من الجياد المطهـمة نادرة المثال، وكان بين يديه حـشد من العذارى قـوامه ألفان مـن الفتيـات. ولكن هناك حدود لإمهـال الله للعاصين من عبـاده، فأنزل عليهـم سخطه وغضب الله عليـه ودمّره بالريح الغربية الـعقيم، التي هبّت عليه ثمانيـة أيّام دون توقف، ودفنت عاداً وكلّ عظمتـه في بحر من الرمال التي تعـرف حتى الآن بالربع الخالي نسـبةً لخلوّها من الحيـاة. وكان مصـير عاد من المواضـيع الأثيرة المتكررة في القـرآن لتحذير عـبدة الأصنام بمكة من مغبّة التيه والضلال[1].

تركت دراسة الجزء الجنوبي من الأفلاج القديمة، وهو ليس أخّاذاً كسابقه- وإن لم يقل عنه إثارة - لأقـوم به في رحلتنا من ليلى للبـديع في المرحلة القادمـة من

(١) راجع القرآن الكريم، الجزء السابع. (المؤلف).

رحلتنا للجنوب. لهذا وبعد أن فـرغنا من زيارة مجموعة قرى الخـرفة الواقعة في الطريق المباشر المتجه للجنوب، انعطفنا في سـيرنا نحو الجنوب الشرقي من الصغو في صباح يوم ١٧ مايو (أيار).

كان علينا أن نعبر شريطاً رملياً ضيّقاً وهو امتداد للنفود الثقيلة المتجهة شمالاً، وبعدها وجدنا أنفسنا ثانيةً في هضبة الغضرا المكونة من الحجر الجيري والتي كانت تنحدر بلطف نحو الغرب وتقاطعها بطريقة مـتشابكة بقايا القنوات التي تتفرع فيما يبدو -استناداً على اتجـاهاتها- من قناة رئيسة تستـمد مياهها من بحـيرة أم الجبل. كـانت هذه القنوات في أغلب الأحوال قـد حـفرت على سطح المنحـدر، ولكنّ واحدة منها أو اثنتين كانتا مبنيتين بالكامل على مستوىً أكثر ارتفاعاً من الأخريات، ويبدو أنهما كانتـا قناتين كبيرتين. بينما كانت الأخريات روافد لهـما. كان الحجر الجيري على السطح يفسح المجال أحياناً لرقاع من تربة رملية متماسكة ورقاع مالحة تغطيها بكثـافة شجيرات الحـمض التي وجدنا في إحداها عُشّـاً لحمَّرة[1] به ثلاث بيضات. وكانت توجد هنا وهناك هضاب صغيرة دائرية، تكوينها خليط مجعّد من الحجر الجيـري والجبس، بينما تجري سلسلة منخفضـة من روابٍ سوداء يُصنِّفونها «هلا» أي صخور بركانية سوداء. في حين أنها قد تكون من الحجر الجيري. وتمتد هذه السلسلة بطول قمّة المنحدر مخفية وراءها صقعاً من مرتفعات سوداء متموّجة، ويبدو سطح هذا الصقع مغطّى برمـال ناعمة تغطيها بكثافة حصبـاء صغيرة سوداء وقطع صخرية أكبر لها اللون نفسه.

(١) طائر في حجم العصفور، لم أستطع تحديد هويته. (المؤلف).

وجدنا في إحدى تجاويف هذه المرتفعات حقلاً متوسط الكبر من الخرائب به بقايا شبيهة بالنصب، وكان بالقرب منها رقعة بائسة من الحيش أو النخيل البرّيَّة. وبعد ذلك مباشرة وجدنا أنفسنا في وسط ساحة دائرية ممتدة من ركام الحجارة بلغ قطرها -كما قدّرته من قمة رابية مسوَّدة في ركنها الجنوبي- ميلين أو نحو ذلك.

بعد ذلك دلفنا مباشرة إلى منخفض عريض، كان في مهده خط من النخيل المبعثرة دونما اتساق يسقيها جدول جارٍ. ولا بد أنّ هذا الموقع كان مركزاً سكانياً في الأزمان الغابرة، ولكنني بحثت دون جدوى في المنخفض نفسه عن مؤشرات لسكن بشري قديم أو حديث، ولم يكن هناك شيء سوى بيتين صغيرين خاليين، يبدو أنه يستخدمهما في زمن الحصاد أولئك الذين يزورون المكان لخراص التمر.

وتابعنا الجدول مرتقين المنحدر إلى منبعه حتى بلغنا النقطة التي بدأ فيها، خارجاً من مجراه المخفي ليمر في مجرى ضيق لا يتعدى عمقه قدماً واحداً يسمى الجدول عين سويدان، ولا يعلم من أين ينبع، ويسمى بستان النخيل غوطة أو غوطة سويدان.

باستثناء هذه المعلومات اليسيرة لم أستطع أن أحصل على أي إشارات عن تاريخ هذا الموقع، أو عن هويّة من سكنوه فيما مضى من زمان. وما تبقى من نخيلها يمتلكه أهل الرزيقية، وهي قرية متناهية الصغر قوامها ستة بيوت مبعثرة في رقعة النخيل الهزيلة، ومساحتها قليل من الأفدنة، وتبعد ميلين نحو الجنوب بعرض سهل عارٍ من الحجارة الجيرية، ولا تعدو المستوطنة أن تكون حزام نخيل طوله ميل واحد وعرضه في المتوسط ٢٠٠ ياردة في مهد مجرى الثوير المائي الذي يهبط من مرتفعات المنطقة.

أما القرية نفسها فهي مجموعة بائسة من البيوت الطينية التي تبلغ نحواً من أربعين بيتًا، وتقع في الجانب الجنوبي لحزام النخيل تحت صخرة شاهقة أثرت فيها كثيراً عواملُ التعرية، وتكوّنت من نتوء في الغضرا يتجه نحو الغرب.

وكان سطح الغضرا مغطىً بخرائب حجرية كما هو سطح المنطقة كلها. وكان مهد المجرى المائي يعاني من تأثير الأملاح، والنخيل تسقى من آبار يقال إن مياهها مالحة. كما كانت البساتين في الطرف الغربي أكثر كثافة من تلك الموجودة أسفل المجرى المائي.

سرنا الآن في اتجاه الجنوب الغربي عبر هضبة وعرة متموجة، من الحجر الجيري، نحو بنّه، وهي آخر المستوطنات وأبعدها من ناحية الجنوب في إطار المستوطنات القديمة الواقعة في منخفض المجرى المائي المسمّى خر، وهو الشعيب المقابل للثوير من الجانب الجنوبي للمنبعج.

ولكن في منتصف الطريق بين مروان وبنّه بلغنا رقعة ثانية كبيرة في مساحتها وتملؤها الخرائب الحجرية التي كانت موزّعة حول منخفض شبيه بفوهة بركان قُطره حوالي خمسين ياردة مع حافة مرتفعة فوق سطح الهضبة وتبدو كأنها رابية صغيرة غارت قمتها.

ومن الجائز أنها بقايا حصن أو مبنىً آخر ولكن وجود قنوات مهجورة في نقاط مختلفة في الجوار توحي بأنها كانت في الأزمان الغابرة مستودعاً مائياً لينبوع مثل الحفر الشمالية. ومهما يكن الأمر فلا بد أنها كانت أيضاً موقعاً لنشاط إنساني في الماضي، إذ أن المؤشرات للأعمال اليدوية التي خلفها الإنسان كانت جليّة في

كل النواحي. وكان هـناك منخفض ذو طبيـعة مشـابهة على بعـد نصف ميل مع قنوات تتجه نحو مجـموعة من قصور مهجورة تبعـد حوالي ميل واحد من نخيل بنة.

تتكون مستوطنة بنّة من قصر وحيد وحزام نخيل يبلغ طوله ربع ميل، وعرضه خمسين ياردة، ويُسقى من جدول مائـي جارٍ يسمّى خريزان، ولا يعرف المزارعون مصدره رغم أنّ قناته مكشـوفة في بعض أجزائها ومغطّاة في أجـزاء أخرى، وبها فتحات الري العمودية الدائرية التي يمكن تعقبـها لمسافة ميلين إلى ناحية الغرب من النخيل. في الوقت الذي قمت فيه بزيارة المستوطنة كان هناك عدد قليل من العبيد يقومون بالعمل في الفتـحة العمودية الأخيرة والتي كان يبلغ عمـقها ثلاث قامات تقريباً لمحاولة زيادة انسـياب المياه الذي كان ضعيفاً للغاية. وكـانوا يقومون بنظافة المجرى ولكنهم فيما يبدو كانوا يعـملون على غير ماهدىً إذ أنهم اعترفوا أنهم لم يكونوا يعرفون الاتجاه الذي يأتي منه الماء.

وكان من الواضح أن الينبوع الذي يُغذّي المجرى المائي يفقد حيويته بالتدريج. وكأنّما كانـت نخيـل بنة على وشك أن تأخذ نصيبها من المصير الكالح الذي حاق بكثير من مستوطنات الأفلاج القديمة.

كان أمير البـديع قد أخبرني أنّ العمال الذين كانوا يحـفرون في المكان لتطهير قناة خريزان وجدوا حجراً غريباً عليـه كتابة منقوشة. لذا عندما ذهبت إلى بنة كان يحـدوني أمل عظيم في أن أكتـشف بعض الوثائق التي قـد تعطي مؤشـرات عن تاريخ حضارة الأفلاج القديمة، لكن خاب رجائي، إذ أن العـبيد الذين استجوبتهم بدقـة عن الأمر لم يتـمكنوا من إبراز شيء ذي أهـميـة سوى قطـع بلورية غليظة

وشرائح من الحجر الجيري متحبّبة كالبللور. إنّ الزمن والبحث والتقصّي الدقيق هما الكفيلان بحلِّ المعضلة التي يمثلها انتشار الخرائب والبقايا البالية في هذه المنطقة -إن قُدِّر لأحد مزودٍ بكل ما يستلزمه هذا التقصّي أن يزور هذه الأنحاء- ولكن حتى ذلك اليوم سيبقى تاريخها مغلفاً بالغموض. كلّ ما نعلمه يقيناً هو أنّ الإنسان قد عاش هنا حياة مزدهرة في وقت ما، ثمَّ زال الرخاء ولم يَعُدْ ثانيةً ولا ندري إن كان السبب هو حماقة الإنسان أم قانون الطبيعة.

٤- أفلاج القرون الوسطى:

رغم أننا لا ندري من كانوا سكان الأفلاج القدماء، لكن الآثار المتبقية حتى يومنا هذا من الأعمال اليدوية تجعل الاحتمال الأكبر هو أنهم ما كانوا من سلالة عربية وأن أرومتهم التي انفصلوا عنها ليستعمروا أجزاء في عمق الجزيرة العربية، كانت ذات حضارة أعظم من كل الحضارات المحلية التي سادت حينذاك بين الجماعات المختلفة في الجزيرة العربية باستثناء حضارة السبأيين في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة. إن استمرار مخلفات قديمة في الأفلاج ذات صلة بقوم عاد حتى يومنا هذا، وكذلك قلة المتوافر في أيدينا من معلومات، إضافة لما نعلمه من أنّ المرتفعات الجنوبية الغربية كانت على مرِّ العصور مصدراً للهجرة البشرية التي زادت أعداد السكان بالجزيرة العربية.

كل هذا يجعلنا حذرين في أن ننسب ونجعل مصدر الحضارة القديمة في أقاليم وسط الجزيرة العربية هو الشرق بدلاً عن الغرب. ولكن من ناحية أخرى فإنَّ غياب الخرائب من النوع الموجود في الأفلاج والخرج عن كل المواقع الأخرى بطول الطريق المؤدي من الأفلاج للجنوب وخاصة وادي الدواسر، وكذلك التشابه العظيم في نظام قنوات الري في الأفلاج والخرج من جانب مع تلك الموجودة في الأحساء ومنطقة القطيف من جانب آخر، وكذلك ما نعرفه من أن الساحل الشرقي للجزيرة العربية كان فيما مضى من زمان -ولفترة طويلة- تحت هيمنة الفرس[1]، كل هذا يجعلنا ننظر إلى الشرق وليس للجنوب الغربي لتفسير الظواهر التي نجدها في هذه الأنحاء.

---

(١) لم يكن مشرق الجزيرة العربية تحت هيمنة الفرس بل كانت السيطرة عليه عربية بحتة ثم أعقبها سيطرة العثمانيين عليه إلى أن تنازعها في ذلك البرتغاليين في فترات ليست طويلة ثم أصبحت تحت السيطرة العثمانية والعربية بالتناوب ثم آلت إلى العرب. (المراجعون).

ليس من الضروري أن نتجشم عناء التحقق من أمر لا نستطيع حسمه، ومهما يكن الأمر فليس هناك من شك في أنّ استعماراً لاحقاً حدث لإقليم الأفلاج من الجنوب الغربي في موجات غزو متلاحقة، خلفت ثلاث منها على الأقل آثاراً وأناساً في الإقليم. إحدى هذه؛ غزو الأشراف قبل ثلاثة قرون، وهو أمرٌ أشرت إليه سابقاً عندما تحدثتُ عن واحة السيح، وتتجلى في واحة البديعة الآثار الأخرى.

وقبل أن نغادر ليلى لنعاود المسير نحو الجنوب كان لا بُدّ لنا أن نجري بعض التعديلات اليسيرة في مجموعتنا لنملأ الخانتين اللتين شغرتا، إذ أن المحمّدين ما كانا يستطيعان مواصلة الرحلة معنا بعد حدود الأفلاج بسبب ديات دم لما تحسم بعد مع فخذ الوداعين من قبيلة الدواسر الذين كان علينا أن نمرّ بأرضهم بعد أن نغادر إقليم آل حسن. لقد سبب لي ذهاب الفتى الذي انضمّ لمجموعتنا في الدلم أسىً حقيقياً، وسأتذكره دوماً كأحد المبرزين القلائل؛ زميع ومترك وجابر وحسن وعرفاني وقليل من الآخرين، وكلهم قدموا لي خدمات جليلة أثناء إقامتي في الجزيرة العربية.

وعندما بلغنا أم الشناظر حيث تقيم زوجته التي لم يرها منذ أشهر، لم يشأ أن يتركنا قبل أن يفي بالتزامه معنا، وجاء إلينا في اليوم التالي في ليلى وبقي معنا حتى اليوم السابق لرحيلنا، حيث فارقنا عائداً إلى داره. مثل هذه الأشياء نادرة الوجود بين العرب، ولم يشأ طامي أن تمرّ هذه الحادثة دون أن يهزأ بالرجل، ولكن كانت لمحمد الغلبة في التناوش. ولم يكن هناك من سبب يجعل محمداً يندم - على الأقل فيما يخصني- للالتزام الحرفي بعهده. لا أشك في أنّ الرجل كان سيرافقنا نحو الجنوب لولا المطالبة بدية الدم التي نجمت عن قتل أخيه لرجل من الوداعين، ولقد ظلّ لسنوات طويلة يحاول جمع المال اللازم للدية التي حدّد العُرف قيمتها

بمبلغ ٨٠٠ دولار تدفع لأولياء الدم. ساهم ابن سعود بمبلغ مئة دولار للصندوق الذي بقي عليهم جمع أكثر من ثلاث مئة دولار أخرى حتى يكتمل وهو الأمر الذي سيستغرق عدداً من السنوات. أمّا سَمِيُّهُ فلقد كان لا مبالياً ولم يكن له ما يميزه، ولقد دلّت السنوات الخمس التي قضاها محباً للراعية -التي أصبحت زوجته الآن-، على روحه العاطفية التي ما كان للمرء أن يتوخّاها فيه لما يبدو عليه من مظهر باهت وهمّة فاترة، ولم أستطع مقاومة الشعور الذي انتابني من أن حجّة دية الدم التي ادّعاها مع الوداعين لم تكن سوى غطاءً لمحاولة العودة المبكرة لعروسه.

لكنني لم أعترض على ذهابه على أمل أن نستطيع أن نستبدل به شخصاً آخر من قبيلته يكون أكثر مقدرةً على التفاهم والتواصل. ملأنا الخانتين الشاغرتين بأن ضممنا إلى المجموعة رجلاً يدعى صالحاً وهو من مواطني وادي نجران وأحد أفراد قبيلة عرجا الذين ينحدرون من قبيلة يام، وبذلك يدّعون قرابةَ رحم مع آل شامر والعجمان - مثل حداة ركبنا. وكان الآخر طويرش وهو ودعاني من فخذ الحنيش وكان موطنه في السُلَيِّل، وكانت طريقته في الحديث تستعصي على الفهم، إضافةً لخنّة أنفيّة رهيبة وطباع جافة فظة لا تَسُر. وفوق كل هذا كانت تعوزه لحدٍّ كبير الصفة التي ادّعى إبراهيم أنه قد تعاقد معه بسببها، وهي المعرفة بالإقليم. وعرض رجل آخر خدماته في ظروف غريبة بعض الشيء.

كنا ركباناً نخترق واحة الخرفة وكنت قد انفردت في مقدمة الركب عندما لاحظت أحدهم يلبس عصابة الرأس الخاصة بالأخوان متجهاً نحوي من أحد الجوانب، ولأني لا أود أن أؤذيه بتحية لا مبرر لها تابعت سيري وكأنني لم أره. لكن تحركاته كانت مقصورة تماماً وعندما اقترب مني محاذياً بادرني: «سلام عليكم»، وأجبته: «وعليكم السلام»، ثم صحبني وطفقنا نتحادث. أخبرته عن

وجهتنا وسألته بعض الأسئلة عن الوادي فأجابني بحديث رجل لرجل دون أن يبدي امتعاضاً لرفقتي أو رغبة في الإسراع ليذهب عني بعيداً. أخبرني أنه أحد إخوان سبيع بالضبيعة وأنه كان بالقرية عندما مررنا بها، وأنه سمع عني، وأنه كان في طريقه إلى البديع ليبتاع «ذلولاً»، ولكن كان من المحتمل أن يفوق سعر الذلول ما بحوزته من مال. فقلت له: «انظر، إن كنت بحاجة للمال لماذا لا ترافقني إلى الوادي؟ وعند عودتك سيكون لديك من المال ما يكفي لشراء الذلول» .

كانت فكرة ضمّ رجل مثله لمجموعتي بمحض إرادته أمراً قد راق لي، ولدهشتي أبدى استعداده لمرافقتنا. لذا دعوته إلى تناول طعام الإفطار معنا وأن يقوم في الأثناء بترتيب الأمر مع إبراهيم للانضمام للمجموعة. وافترقنا بعد الإفطار وأنا أظنُّ أننا سنلتقي ثانية في البديع، لكنني لم أره بعدها قط، وعلمت فيما بعد أن إبراهيم ثبط همته، لأسباب منطقية خاصة به.

استمر الشريط الرملي الذي ذكرته سابقاً والذي يفصل بين الأفلاج القديمة والأفلاج الحديثة، واستمرّ ممتداً نحو الجنوب بطول الحافة الشرقية للغضرا حتى نقطة تقع خلف واحة البديع. وتمت زراعة خط عرضي من الأثل «صدَّة» منذ عهد قريب لحماية الواحة من تراكم الرمال التي تأتي بها الرياح الشمالية، ولكن يبدو أن المحاولة لم تكن ناجحة إذ أن الرمال تكوّمت عالياً في الجانبين الشمالي والشرقي للواحة، وقد تأثرت بساتين النخيل كثيراً بهذا السبب.

تقع واحة البديع على بعد عشرين ميلاً إلى الجنوب الغربي من ليلى، ويقال إنها كانت المستوطنة الرئيسة للإقليم أثناء المراحل الأولى للغزو العربي الذي أتى من الجنوب الغربي. وتحتل الواحة مساحة أربعة أميال مربعة. جزء كبير منها تغطيه بساتين نخيل رديئة مبعثرة، بينما بقية الأرض - ولعلها أكثر من نصف المساحة

الاجمالية- أرض قاحلة توجد بها رقاع متفرقة من أراضٍ مخصصة لزراعة الحبوب، أو مناطق سكنية، أو خرائب لمساكن قديمة. يتفرع شعيب حصرج بعد أن ينبع من مرتفعات طويق لفرعين يجريان بالعرض ويسقيان الأجزاء الجنوبية والشمالية من الواحة تحت اسم حرم وخر، على التوالي.

وتنقسم الواحة إلى ثلاثة أجزاء محدّدة هي سلمى وقرينة وهدّام. والحد الفاصل بين الجزأين الأوليْن -اللذين يضمان معاً كل المساحة المسكونة والمزروعة- هو مجرى خِر، في حين أن جزء هدّام الذي يقع شرق وشمال شرق سلمى ما هو إلاّ خرائب مبعثرة في اضطراب لمدينة كبيرة درست وغطّت معظمها الرمال المتحركة. جزء سلمى أو القسم الشمالي، الذي يحتل حوالي ثلثيْ كل الأرض الصالحة للزراعة يُسقى من مجرى سيول حرم الذي ينضب معين سيله عند بلوغه بساتين وحقول ذلك الجزء، كما يسقى بدرجة أقل من مجرى الخر، وهو الأقوى بين المجريين ولا يزود قرينه بالماء فحسب، لكنه من القوة بحيث اختطّ لسيره عبر الزمن مجرى عميقاً عبر هضبة الغضرا التي تمسّ المستوطنة في هذا الموقع ليصل في النهاية لبنّة. وخلافاً لهذا فإن بساتين الجزأين تعتمد على آبار عديدة أعماقها في المتوسط بين سبع إلى ثماني قامات تُسحب مياهها عادة بواسطة الإبل. وتشابه الزراعة بالواحة ما رأيناه في المستوطنات التي تقع إلى الشمال، ولكن البديع تسمُ الحدَّ الجنوبي لزراعة الرمان الذي لا يوجد -لسبب ما- في مستوطنات وادي الدواسر.

تقع رابية قرين البارزة على بعد ميل واحد شرق قرينة فوق هضبة الغضرا وتطلَّ على الجانب الأيمن للخر. ويحيط بالرابية حقلٌ متسع من الخرائب من بقايا الحجارة التي يعود تاريخها بلا شك للحقبة التي وصفناها في الفصل السابق،

ويمكن أن نعدها جزءاً من مستوطنة بنة القديمة وليس البديع. ولقد نقل لي الأمير أن أول سكان البديع فيما تحكيه الروايات القديمة هم قبيلة أو عائلة الأصفر التي لا يعرف شيء عن تاريخها سوى أنهم طردوا أو أُبيدوا على يد عشيرة الجملان التابعة لعنزة الذين احتلوا الإقليم -أو على الأقل- هذا الجزء منه، قبل أن يتقهقروا بدورهم تحت ضغط الدواسر، ليذهبوا نحو الشمال قبل حدوث مواجهة عاصفة. ولم يخلّفوا وراءهم ما يوحي باحتلالهم للإقليم سوى أثر واحد سأعرض له بعد قليل، وبقي حتى يومنا هذا في مرتفعات طويق التابعة للأفلاج. باستثناء الخرائب القديمة في قريْن، فإنّ أول موقع استيطان في البديع هو بلا شك ما تمثله خرائب هدّام التي تنبئ أسوارها الطينية القوية ومبانيها المهيبة أنها كانت مدينة محصّنة ذات حجم ضخم وأهمية كبيرة - ولعل عنزة هي التي بنتها وهي أول موقع إذا ما أهملنا ما رُوِيَ لنا عن الأصفر، والتي قد لا تمثل سوى أسطورة هلامية عن الماضي السحيق كأسطورة أرض عاد بالسيح.

مهما كان الأمر فإن عنزة قد احتلت -إن لم يقوموا ببناء- هدّام التي ظلت تلالاً من الحطام والخرائب عبر الأزمان التي ظلت في ذاكرة التاريخ، أو لعلها أحيلت إلى تلك الحال بفعل الدواسر المغيرين، الذين استبدلوا بالمركز العام الذي أقام فيه أسلافهم قرىً متناثرة تدلّ أكثر من أي شيء آخر على الغيرة الضيقة والتحزب الدموي الذي جعل اسم القبيلة مضرباً للأمثال في وسط الجزيرة العربية. كان سكان البديع -كما هو الحال مع بقية الإقليم- من مجموعة الحسن، ويحتل قسمي القرية حتى يومنا هذا سلالة المستقرين الأوائل: قسم الصخَابرة في سلمى، والشكرة في قرينة.

في الجزء الأول (سلمى) يوجد عـدد من القرى الصغيـرة و القصور، وسلمى هواسم أكبر هذه القـصور، وتقع في قلب الواحة على وادي حرم، وتتصل مـعها قرية صغـيرة أخرى تسمى سوق، وكوّنت الاثـنتان فيما يبدو قـرية واحدة، حتى أزيلت التحصينات المحيطة بهما معاً بواسطة عبدالله بن سعود[1] عندما هبت هناك انتفاضة وتمرّد ضد سلطانه في نفس الوقت الذي قامت فيـه حركة المبرّز تقريباً. ما زالت هناك بقايا قـائمة للحائط القـديم، لكن سوق لا تعدو عمليـاً أن تكون قرية صغيرة مكـشوفة تكثر فيها الأسـوار العالية[2] والحصون السـميكة بسلمى، والتي يجوز أن عبدالله قد تركها دون أن يحطمها، أو أن بناءها قد أعيد بعد ذلك.

لا يوجد بالقريتين معـاً سوى خمسين بيتاً. أمـا القرى الأخرى في هذا الجزء فهي بُطينة التي تتكون من ثلاثين بيـتاً، وأم الزُّبيِّرة ومشرف. والقريتـان الأخيرتان خربتان، وتقع مشرف على بعد ميل خارج حدود الواحة من الناحية الشمالية. أما مستـوطنات الجزءالجنوبي فهي قـرْينة نفسها وهي قـرية متضامَّة بهـا حوالي ثلاثين مسكناً، وقـصر العلا وهي قـرية أصغر وبهـا قصور متناثـرة. يبلغ تعداد السكان بالبـديع تقريبـاً ١٠٠٠ نسمة، رغم أنـه يمكن مضاعـفة هذا الرقم إن أخـذنا في الحسبـان عناصر البدو الذين يعتمدون عـلى الواحة. وكانت الرقعة المزروعة فـيما مضى من زمان محاطةً فيما يبدو بسـور، ولكن لم يتبق منه إلاّ أجزاء متفرقة بعد أن دمّرَ الأجزاء الأخرى عبدالله بن سعود، أو -وهذا أكثر احتمالاً- دَمّره الدواسر أنفسهم عندما احتلوا الناحية في البداية.

---

(١) الإمام عبدالله بن فيصل بن تركي. (المراجعون).

(٢) ارتفاعها حوالي أربعين قدماً. (المؤلف).

رحب بنا أمير سلمى عند وصولنا، واسمه مرضي وهو من قسم الصخابرة التابع للدواسر. وأولى الأمير أمر راحتنا واستيفاء متطلباتنا كل عنايته وحرصه رغم تقدمه في السن، وتناول معنا الوجبة في الليلة التالية، وتجلّت لنا شخصيته الباهته وعزوفه عن الحديث رغم أنه أخبرني بما سجلته هنا عن تاريخ الواحة، ولقد كان هو نفسه شاهد عيان لرد فعل عبدالله. أما ابنه محمد فلقد كان في حوالي الأربعين من العمر، وكان متحدثاً لبقاً وذا شخصية محببة. ولقد تكرّم بمرافقتي في زيارتي لبنّة بحثاً عن الحجر المنقوش. أما الجيل الثالث للعائلة نفسها فهو ابن محمد الذي رافق جده عندما تناول معنا الطعام.

٥- على حافة الربع الخالي

تقع صحراء البياض الشاسعة إلى الجنوب من الأفلاج، وتجري حافتها الغربية في اتجاه الجنوب تقريباً لمسافة تربو على مئة ميل من خط عرض الخرج. ويمتدّ من هذه القفار نتوء ذو رأسين نحو الغرب ليلامس المنحدرات الخارجية لهضبة طويق التي يتحول تصريف مياهها جزئياً - بعد أن يحبسها هذا النتوء - نحو الشمال والجنوب ملتفاً حوله لتجري المياه بطول الخطوط الأكثر انسياباً. أما الجزء الأكبر من مياه التصريف فيتّجه نحو الكتلة المركزية لانبعاج البياض، فتدفعه للوراء بين الرأسين لتكوّن إسفيناً عريضاً هو الخليج المطوّق الذي يسمى المقرن. وهناك يكوّن المجريان العظيمان اللذان يسيلان من هضبة طويق، وهما الشُّطَبة والضُّبْعيَّة: أودية عريضة تحفّها الأشجار وينحتان مساريهما بعمق ويحملان المياه في النهاية عبر حاجز الأحقاف نحو الصحراء، ويتركان الكتل الصخرية الصلبة متناثرة في المنخفض فيبدو وكأنّ به تلالاً متفرقة.

في أزمان سابقة مازالت في ذاكرة المعاصرين - إن كان لنا أن نصدّق الروايات المحلية بشأنها - حين لم يكن هناك من الأمن ما يسمح بالسفر الآمن، وحين كان منخفض المقرن جافاً - إلاّ في موسم السيول - كانت القوافل تتخذ مساراً دائرياً بطول الجوانب الخارجية لهذا النتوء الصحراوي في طريقهم للأفلاج عن طريق واحة الشطبة الصغيرة الواقعة في طيّات طويق، والتي كانت الموقع الوحيد الذي يمكن أن تستقي فيه القوافل في طريقها بين حمام والبديع. ولا بدّ أن طول الرحلة حينها كان يُعادل طولها الحالي مرّة ونصف، إذ أن الطريق الجنوبي الغربي المباشر وهو الذي اتبعناه للسُلَيّل يسير عبر نتوء البياض بطول قاعدته ويمرُّ بإزاء برك المقرن

وهي مصدر ماء تتوسط المسافة بين البديع وحمام. هذا الطريق المباشر طوله حوالي ١٢٠ ميلاً.

بعد أن غادرنا البديع سرنا ثمانية أميال، وقادنا الطريق فوق ما تبقى من سهل الأفلاج الذي كان سطحه ينحدر بلطف نحو الجنوب الشرقي، كما كانت تربته طفلية رملية خفيفة تتعاقب مع شرائط عريضة من الحصباء مع قدر وافر من نباتات قصيرة خشنة. وفي منتصف الطريق عبرنا المهد الرملي الخفيض لشعيب مُسرجة، وهو مهد للسيل صغير يأتي من المرتفعات.

وبعد ذلك بقليل بلغنا حدود الإقليم في مهد شعيب الحنو الواضح المعالم، وهو مجرى مائي رملي عرضه حوالي خمسين ياردة ويجري بين شطين ارتفاعهما قدمان من غرب طويق بطول الجنب الشمالي لنتوء البياض ثم يضيع في القفار في ناحية الشرق. وكانت على جانبي المجرى المائي الكثير من النباتات؛ شجيرات الشار والسلم وأعشاب متعددة الأنواع.

بعد ذلك بلغنا ربوة صغيرة تسمّى خفيسة، يلتصق بها مجرى للتصريف يحمل الاسم نفسه . كانت هذه الربوة تسم البداية للقفار الحقيقية، أو الامتدادات الشاسعة من الصحراء المغطاة بحصباء رمادية اللون لا يحدها سوى الأفق الذي ارتقت إليه بدرجة تحدُّرٍ ولا تكاد تحسّ. اطلعتُ من قمة الربوة على مشهد فسيح متسع بيد أنه لم يكن يوحي بشيء. كان من ورائنا سهل الأفلاج الرتيب مع بقاع خضراء صغيرة، وكان يسند السهل من الخلف حاجز طويق. وكان أمامنا الربع الخالي -الخالي من الماء- وكنا على وشك أن نعبر حافته إذ أن العرب يعتقدون

-وهم محقون في ذلك- أن البيـاض هي حافة الربع الخالي، رغم أن الرمال التي يقصر عليهـا الجغرافيون ذلك الاسم تقع على مسـيرة أيّام عديدة في اتجاه الجنوب والشرق. كان التموّج اللطيف لطليعتها مثل أمواج بحر تتكسر على خط الساحل. وكانت الصحراء الناعمة تسـتكنُّ خلف محيط هادي التموّج يضرب في هذا الموقع وذاك بسلاسل تلال وعرة.

ترك مرور عـدد لا يحصى من القوافل طريقـاً عريضاً حفـر عميقـاً في التربة القاسية بطول قناة شعيب سدير الذي يصرّف مـياه المنحدرات الشمالية لهذه المنطقة في اتجاه الحنو.

وسرنا وقد أخذ منا النصبُ مأخـذه بطول هذا الشعيب في وسط تلك القفار، حتى بلغنا بدايته في أرض وعرة وَسَمَت التمايز بين التصريف الشمالي وذلك الذي ينحدر نحـو منخفض المقـرن. ولم يكن هناك معلمٌ يحـيي موات المشـهد الرتيب الممتد لمسـافة أربعين ميلاً بعرض الرأس الأول للنتوء الصـحراوي الذي تحدثنا عنه سابقاً. ووجدنا في موقع ما بجـوار الطريق نصباً صخرياً غريب الشكل مكوّناً من ألواحٍ صخـرية حادة اصطفَّت امـتداداً لمر. وكـان الممر نفسـه مبطناً من الجـهتين بألواحٍ شبيهة امتدت منه نحو الطـريق، وكان في الجوار لوحان صخريان مسطحان يبعـدان عن بعضهـما مسـافة خمسـة عشر قـدماً. كانوا يسـمون هذا المكان ثمرة الهضاب. ماذا كان يعني هذا الاسم؟ ومن كان هضاب؟ هذا ما لم يستطع أحدٌ أن يدلني عليه.

وبعد ثلاثة أو أربعة أمـيال إلى الأمام تقف شجرة طلح وحـيدة، وهي موقع

مفضّل لتمضية القيلولة، وتعرف باسم شجرة عوّاد. وبعد ذلك، وعلى بعد مسافة مشابهة، وبالقرب من منبع الشعيب كانت توجد رقعة بها نصبٌ صخرية تشبه لحدٍّ كبير خرائب الأفلاج القديمة رغم أنها كانت بعيدة كل البعد عن أي مركز محتمل لسكن البشر. لذا ما كان من الممكن ربطها بالأفلاج. هنا تخللت سطح الصحراء سلاسل تلال متناثرة تباينت ألوانها من اللون الرمادي للون الأسمر الفاتح مع خطوط ورقاع من اللون الأسود، حيث غطت الحجر الجيري طبقة خفيفة من الحجر الرملي مع زوائد مسطحة القمة أو مخروطيتها وقد دكن لونها وكأن ذلك بفعل النار.

كان أول ما مرّ بنا في الطريق من مظاهر الحياة مجموعة من نساء الهواملة - وهم قسم شيخ سهمي - يشققن طريقهن من مخيمهن في جوار المقرن، قاصدات ليلى لابتياع بعض المؤن. كان عدد النساء نحواً من اثنتي عشرة وكن يركبن معاً أمام أربعة أو خمسة من الحراس المرافقين الذين تبادلنا معهم التحايا والأخبار. ولقد أبدوا سعادتهم بعودة زعيمهم من مهمته في يبرين ولكنهم شعروا بالإحباط عند سماعهم بنتيجتها. وبعد ذلك بقليل مررنا بمجموعة قوامها ستة من العبيد من قسم ولامين الوادي، وكانوا في طريقهم - كما أخبرونا- بحثاً عن الثروة في مهاد اللؤلؤ في الشاطئ الشرقي.

هكذا يفعل كثير من سكان الداخل، ويعودون في معظم الحالات بعد عدد من سنوات الكدح ببضع مئات من الدولارات تكفي للزواج ولتأمين بيت مع قليل من الضأن أو ناقة إن تيسّر ذلك، وليعيشوا بعدها في غنىً نسبي لبقية أيامهم في الحياة. بيد أن بعضهم لا يرجع ثانية حيث يستهويهم سحر حياة البحار أو ترف

الحياة المدنية في بلد بعيد. أخبرنا أفراد تلك الجماعة أنهم سيسيرون لليمامة ثم يتوجهون بطول صبحا ليستقوا من آبار الوسيعة جنوب أبي جفان ثم عبر الدهناء للأحساء. وهناك طريق مباشر بين الوسيعة والأحساء يمر بطريق آبار الوسيعة، ولكنها مغامرة لا يقدم عليها إلاّ من يعرفون هذه الأنحاء معرفة جيدة يضمنون بها ألاّ يضلوا طريقهم في البياض، وهناك يقطعون فيها ٥٠ ميلاً هو عرض الصحراء التي ليس فيها طرق أو مسارات مطروقة. أخبرني بكل هذا متـرك الذي كان قد سلكها من قبل. ومررنا قبل أن يحلّ الظلام بمجموعة أخرى في قافلة محمية صغيرة من الإبل. كانت تسع من الإبل محمّلة بِبُنّ اليمن المعبأ في أكياس كبيرة، يحتوي كل منها على ثمانين وزنة[1] من الثمار الغالية، وكانوا في طريقهم إلى الحوطة، وهي الحدود الشمالية المعتادة لتجارة البن في الوقت الحالي، إذ أن بنّ اليمن يُعدُّ ترفاً في الرياض وما بعدها، ويأتي به من سوق الحوطة من يستطيعون دفع ثمنه.

قمت في البديع في اليوم السابق بتدخين آخر ما تبقّى لي من تبغ. وكنت أتوقع متاعاً من الكويت ولكن لم يصل حتى غادرنا الرياض، وكنت قد تركت أمراً أن يُرسل إليَّ على جناح السرعة بعد وصوله، ولكن لم يكن هناك من أثر له. كان المستقبل في هذا الجانب يبدو قاتماً -جَد قاتم- إذ ليس التبغ فقط بل أفلام آلة التصوير أيضاً كانت قد شارفت النهاية، ولقد كان السفر دون هذه الضروريات محنقاً مؤلماً. بيد أنّه لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى الصبر بقدر الوسع.

---

(١) راجع الحاشية صفحة ٢٤٤ . (المؤلف).

وكانت الصعوبة في الحصول على أفلام تفوق العجز عن شراء التبغ بدرجة واحدة ليس إلاّ، إذ أن بحث إبراهيم ورفاقه عن التبغ في الأفلاج أسفر عن عثورهم فقط على كمية ضئيلة تقل عن ربع أوقية[1]، وهو ما يملأ فنجان قهوة، وطلبت صاحبته - وهي امرأة من السيح - بكلٍّ صفاقة مبلغ دولارين. كان الثمن المطلوب يدلُّ على محاولة للربح الخسيس وهو أمرٌ لم أقِرُّه، وتابعنا سيرنا بلا تبغ، وبقينا هكذا - بلا تبغ- لمدّة عشرين يوماً أخرى إذ لم يكن في الوادي شيء منه. بقيت منتظراً تبغي الخاص حتى يوم ٦ يونيو (حزيران). لقد أحسّ إبراهيم ورشيد بوقع نفاد التبغ بنفس الحدّة التي أحسسته بها، ولكن من العدالة أن أسجّل أنهما في اليوم الأخير أصرّا على تخصيص ما تبقى من تبغ لاستعمالي دونهما، وكانت النتيجة أن دخّنت ثلاثة غلايين بعد أن توقفوا هم عن التدخين. بعدها صرنا جميعاً بلا تبغ، بيد أنّ إبراهيم لجأ لكشط الرماد عن كل غلايينا وقام بتدخين ما تجمّع لديه منه.

كانت الهضبة المتموجة التي تتكوّن من سلسلة من المنخفضات تُعرف كلها باسم الكرمديات، وهو اسم مشتقّ من الكرمدية [2]، اسم أكبر هذه المنخفضات. كانت هذه الهضبة هي الحد الفاصل بين التصريف المتجه نحو الشمال وذاك المتجّه نحو الجنوب. وكل واحدة من هذه المنخفضات مستقلة عن رفيقاتها، وفي مهادها جميعاً أشجارالسنط والشجيرات الأخرى. ووقفنا على الأرض المرتفعة التي

(١) الأوقية وحدة وزن تعادل حوالي ٢٨ جراماً. (المؤلف).

(٢) أسماء أخرى لهذه المنخفضات هي: نقعة الشجيرة ومُسْرَحَة ونقعة العبيد وأبو طلح وأم السمرة. (المؤلف).

تفصل الواحدة منهـا عن الأخرى وأصبح بإمكاننا أن نطلّ على مشـهد بدت أمامنا فيه الأجزاء المرتفعة في منخفض المقرن وهي: سلسلة التلال الصغيرة المثلّمة المكوّنة من الحجـارة الجيـرية والتي تسمّى الفـرد، وسلسلة تلال مـغالي في اتجـاه الغرب والجنوب الغـربي نحـو طويق، ثم السلسلة والجـبل ذو القـمّة المسطـحة المسـمّى الكدرات، وسلسلة التلال الخفيضة ختيْمِيّة في الاتجاه الجنوبي الشرقي عن يسارنا. وكانت تبدو في اتجـاه الجنوب، صوب آبار المقرن سلسلة عقـرة السوداء والمخروط الأسود المسمّى عبيْد المقرن والسلسلة الصـفراء الطويلة المسمّاة برقة السكون والرابية السوداء المدوّرة: الدنّان التي تسمُ موقعاً لجُبٍّ مـاء خامد. وبدأت أمامنا في السهل رقاع داكنة من أشجار جيدة النمو، إلاّ أن المنطقة كلها بدت وكأنّها تعرّضت لحريق هائل.

كانت إبل الهواملة ترعى منتشرة في المنحدرالمتجه جنوباً وفي المجاري الضحلة لشعيـبَيْ مريخة وهاوي، وكانت أعدادها تزداد كلمـا دلفنا وتوغلنا في المهد الذي تغطيه الأشجار وهو مهد شعـيب هوزعية الذي ينبع في سلسلة تلال الفرد. بعدها دلفنا إلى شعيب الشطـبة: أحد الواديين العظيمين لمنخفض المقـرن. دلّ وجود بئر سحب مطمورة عنـد التقاء هذين الشعيـبين لموقع سقيا قديم احـتلت مكانه إحدى الظواهر العجـيبة للصـحراء: وهي الخفس. وبلغنا هذا الموقع بـعد عبورنا لحـاجز كثـيف من أشجار السنط جيـدة النمو وأشجـار السرح، وأشجار أخـرى. وكانت البركة وهي واحـدة من ثلاث برك تكوّنت منذ عهد قريب - إذ يبـدو أنها تكوّنت في زمان يتـذكره المعـاصرون الآن - وصـار صقع المقرن مَـعْبَـرا للطريق الجنوبي العظيم وموقعاً مفضّلاً للبدو في ترحالهم وراء قطعانهم.

تزامن وصولنا للخفس الأول حيث أنخنا للقيلولة لمدة أربع ساعات، تزامن مع استقاء دوري للهواملة الذين حضروا ومعهم إبلهم الضخمة الداكنة اللون. تُعرف إبل الدواسر بأحجامها الكبيرة وكميات اللبن الوفيرة التي تنتجها. ويحضر الهواملة للخفس كل أربعة أو خمسة أيّام من البياض والمراعي الأخرى الموجودة في الأنحاء. ونُصبت الخيام في مجموعات تناثرت في كل الوادي، وكانوا يردون الماء جماعة إثر أخرى، وهي عملية تَستغرق منذ ابتدائها حتى الفراغ منها ما يربو على اليومين. وكانت خيام هذا القسم من القبيلة تتكون من قطع قماش سوداء قصيرة مهلهلة توضع فوق أعمدة قصيرة، وفي بعض الحالات لم تتعدَّ الخيام شرائح من حصير سعف النخيل تُفرش على أعمدة وتغطيها بعض فروع الأشجار التي تحتطب من الأشجار المجاورة. وكونها قاعده عامة كانت كل خيمة تؤوي عائلة واحدة، ولكن في بعض الأحيان - كما أخبروني - يُمكن لأخوين أن يتدبرا أمرهما بالإقامة في خيمة واحدة، وتحتل الأسرتان طرفي الخيمة دون فاصل بينهما ودون عقد. لم يُظهر البدو احتجاجاً لإقامتنا بينهم بل أفسحوا لنا المجال لنسقي إبلنا بالطريقة التي تروق لنا، بيد أنهم لم يبذلوا جهداً للتقارب معنا رغمَ أنّ مجموعات من النساء والأطفال الذين لم يكن هناك ما يشغلهم قد داروا في فضول حول خيمتي. وأجرينا معهم مناقشات لشراء ذلول لأنني كنت حريصاً على أن أعود ومعي حيوان ممتاز حقاً لأُهدَيهُ لابن سعود، ولقد قمت بتفحّص ناقة كانوا قد طلبوا ٣٠٠ دولار ثمناً لها، ولكن لم يتم الشراء إذ أنّهم لم يوافقوا على اشتراطنا بأن نعيد الناقة إليهم بعد التجربة إن لم تَرُقْ لنا.

اتخذ الخفس الذي خيمنا بإزائه شكل النجمة، صدعٌ في الأرض يبلغ طوله نحواً من خمسين ياردة، وعرضه ثلاثون، ويبلغ عمق الماء حوالي ثلاثة أقدام في

المنتصف مع انحدار لطيف نحو الشواطئ. وكانت تحيط بالخفس أجمة كثيفة من الأشجار الظليلة، وموقعها على أحد جوانب الوادي بالقرب من سفح سلسلة البياض، وكانت متصلة مع مجرى سيول الشطبة بواسطة عدد من المجاري الضيقة. ويلتقي وادي الشطبة الذي يسيل من منحدرات طويق بطول الجانب الشمالي لسلسلة تلال مُغالي، مع شعيب الضبعية الذي ينحدر بطول الجانب الخارجي لنفس التلال ليكوّنا معاً مجرى واحداً يمرُّ عبر صخور البياض الشاهقة بين رابية الدنّان وسلسلة عقرة. ويحدث التقاء الشعيبين هذا على بعد ميل واحد - أسفل طريقنا - من الموقع الذي كنا فيه عند رابية من الحجر الرملي يسمونها برقة المانع. ويمرُّ شعيب صغير يسمى أم العطور عبر فجوة مركزية في سلسلة مغالي ليقترن بالشطبة بالقرب من برقة المانع. لقد ذكرنا من قبل شعيب هوزعيّة الذي ينحدر من سلسلة تلال فرد، وكذلك رَافدَيْه: شعيب هاوي وشعيب مُريخة: وتكتمل شبكة التصريف لمنخفض المقرن بشعيب سحب الذي تجري مياهه نحو الضبعية من مرتفعات فردة ابن موّاش وهو الرأس الثاني لنتوء البياض. يمتدُّ لسان رملي ضيّق نحو طويق بين مرتفعات مغالي وفردة ابن مواش ليفصل شعيب الضبعية عن شعيب سحب الذي يجمع عند مروره بطول صخور البياض ومياه صرف عدد من المجاري الصغيرة المنحدرة من المرتفعات في ذلك الاتجاه.

وبعد أن يلتقي وادي الضبعية مع وادي سحب، يجري الوادي المشترك بطول صخور البياض الشاهقة، أسفل سلسلة تلال عقرة في مجرى الطلح. كما يوجد بالوادي الخفسان الآخران على مقربة من بعضهما ولا يفصل بينهما سوى مسافة ميلين. ويبلغ طول الخفس الأصغر منهما حوالي ٢٠ ياردة وعرضه ١٥ ياردة، وهو صدعٌ عميق لا يبعد كثيراً عن سفح الصخور الشاهقة ويغطّى مهده الماء

لارتفاع قدمين. بيد أنّ حواف الصدع ترتفع بحدّةٍ لستة أو سبعة أقدام مع وجود منحدرات حادة تقود إلى حافة الماء في مواقع متعددة يستخدمه الإبل والرجال للوصول إلى الماء. كان الخفس الثالث هو أكبر الثلاثة، وكان يتخذ شكلاً مستطيلاً بطول ثمانين ياردة وعرض عشرين ياردة، تحيط به وتظللهُ أشجار طلح طويلة، يحتوي الخفس على حوالي ثلاثة أقدام من الماء، وترتفع الحواف حوالي قدمين فوق سطح الماء. وكان عدد كبير من البدو قد تجمعوا حول الخفس ليسقوا إبلهم.

نصبنا خيامنا تلك الليلة في مجرى سحب أسفل صخور البياض الشاهقة. وفي صباح اليوم التالي تابعنا المسير مرتقين صخور البياض إلى طرفها الأعلى في قمة الرأس الثاني للنتوء المذكور، تاركين سلسلة فردة ابن موّاش عن يميننا ومُسَيْجَرات عن يسارنا. بعد هذه النقطة التي تسمُ الحَدَّ الجنوبي لإقليم الحسن، وبداية حدود مجموعات الوادي، هبطنا فوق سطح البياض المتموِّج الوعر لنبلغ شعيب عُدَيِّر، وهو شريط ضيّق تكثر به الشجيرات وتحيط به من أحد الجوانب صخور البياض الشاهقة ومن الناحية الثانية شعيب خفيض[1] يواجه منحدرات طويق الخارجية وشعيب مرّان الذي تتصرف من خلاله مجاري منحدرات طويق في هذا الجانب، ويجري الشعيب الخفيض هذا موازياً لغديّر نحو الجنوب -أي نحو وادي حمام-. ويغطي مهد الشعيب غطاء كثيف من أعشاب الثمام وشجيرات السرح والسلم ويغطيها جراد خامد وجراد ذو صوت ثاقب، وكان الأخير في أعداد لا تحصى. وكانت سيول الموسم الماضي قد خلّفت عدداً كبيراً من البرك في أجزاء

(١) يسمى: أم جدار. (المؤلف).

من المنخفض، سقينا إبلنا من إحداها. وحلّق حولنا على ارتفاع كبير نسرٌ أو طائر مثله، وكانت الغزلان البيضاء التي تعرف باسم الريم كثيرة جداً، وأضفى نوع من الطيور على المكان لوناً زاهياً، وأظنه الزرياب الأزرق.

لم يكن سيرنا أثناء النهار طويلاً، ولكن الإبل رغم حصولها على ماء لم تكن تتوقعه أبدت علامات الإنهاك. وعندما لاحت أمام أبصارنا نخيل مستوطنة حمام على القرب، قررنا التوقف قبل بلوغ المستوطنة. وزاد عدد أفراد مجموعتنا في المقرن برجلين من قسم الدمنان التابع لقبيلة آل مرة كانا في طريقهما إلى السُّلَيِّل، وكانا قليلي الكلام ولم تجلب صحبتهما لنا البهجة، ولم يكسر رتابة الرحلة سوى مرور قافلة تحمل البن قوامها سبع عشرة من الإبل في طريقها إلى الأفلاج. وتعرّض طامي في اليوم السابق لحادثة غريبة لم تظهر آثارها إلاّ الآن. كان هو وابن جلهم قد توقفا من أجل شربة ماء.

وبينما كان طامي منهمكاً وقد دفع برأسه إلى الخلف ورفع يديه يمتصّ الماء من قربة رقيقة، تحركت ذلوله فجأة إلى الأمام وتسبب ذلك في أن اشتبك أصبع قدمه الصغير في سرج ابن جلهم وكاد أن يُبتر إذ انكسر العظم منه ونتأ من خلال الجلد. تمّ لفُّ الأصبع المكسور بقطعة قماش قذرة ونُسيت الحادثة حتى مساء اليوم التالي حيث شكا طامي المسكين ألماً ودواراً وأوى إلى فراشه دون أن يتناول عشاءه. وظل يواجه صعوبة في المشي لعشرة أيّام بعدها، ولكنه بعد ذاك التأمَ جرحه واستعاد حيويته، ولم يمض وقت طويل حتى استعاد الأصبع شكله الطبيعي وزالت كل آثار الكسر.

٦- وليم جيفورد بلجريف في الجزيرة العربية

نُشر في عام ١٩٠٤م كتاب خلاب مهم يحمل اسم «التوغُّل في الجزيرة العربية» The Penetration of Arabia، كتبه السيد د.ج هوجارث، الذي يمتلك - إضافة لإنجازاته الأخرى الكثيرة -معرفة لا تجارى عن شبه الجزيرة العربية وكلّ ما بها. ولقد اغتنم فرصة التوقف عن محاولات اكتشافها فجمع كثيراً من المعلومات الحديثة عن ذلك البلد المجهول. ولقد بنى جهوده على المعلومات التي أورثها للعالم خطٌّ طويل من المكتشفين والباحثين عن الحقيقة أو عن الربح أو الشهرة أو المغامرة. إنني أدين لذلك الكتاب الذي صحبني في كل تجوالي، أدين له بالإلهام الذي قادني بعرض الجزيرة العربية في العام الماضي، ودفع بي الآن لما وراء آخر الحدود التي طرقها كل من سبقني في اتجاه الجنوب. ولست مديناً للكتاب وحده ولكن للكاتب نفسه الذي أسعدني الحظ بالتعرّف عليه في جِدّة في نهاية رحلة لم أكن لأقوم بها لولا تلخيصه لكلّ ما كان معروفاً حينئذٍ عن هذه الأنحاء.

في ظلّ هذه الظروف قد يبدو من غير اللائق أن أنتقد عملاً أدين له بقدر كبير. ولكن فيما يختص بنقطة واحدة لا تكون هناك مندوحة عن الانتقاد، بل يصبح لزاماً عليّ أن أقوم ببعض التوضيح. بيد أنّ انتقادي ليس موجهاً نحو السيد هوجارث أو الاستنتاجات التي توصل إليها من الدلائل التي كانت بين يديه، ولكنها موجهة نحو شخص آخر وثق هوجارث في أعماله كثيراً ووضعها في مرتبة تضاهي ما توصّل إليه هو نفسه، بل وضعه في مقدمة المصادر التي بني عليها دراساته عن الجزيرة العربية. وسيظهر لاحقاً كيف أنّ وليم جيفورد بلجريف المغامر

اليسوعي[1] لا يستحق إلاّ قليلاً من تلك الثقة. ولكنني أودُّ أن أوضّح من البداية أن أولئك الذين يعرفون الجزيرة العربية من الداخل سيوافقونني على معارضة الحكم الذي أطلقه هوجارث عنه: «إن نظرنا لكلّ مكتشفي الجزيرة العربية وأخذنا في الحسبان كلّ ما يتّصل بالاستكشاف من ناحية المساحة التي تمّت تغطيتها والمخاطر التي جوبهت والنجاح الذي تحقق، نجد أنَّ داوتي وحده هو الذي يمكن -بعدل- مقارنته ببلجريف»[2] لقد كان داوتي مؤلف كتاب «الصحراء العربية»- أعظم ملحمة في كل أدب الرحلات- رجلاً نسيج وحده، ولا تمكن مقارنته بمن سبقوه أو أولئك الذين لحقوا به في صحاري الجزيرة العربية. وكان أبعدهم عنه وأقلّهم شأناً مقارنةً به هو بلجريف الذي كان ما كتبه عن رحلاته - كما يقول السيد هوجارث - مناقضاً لما توصّل إليه هو نفسه[3]. وأضيف أنا أنّه كان مناقضاً لهوجارث في كلّ شأنه. وقبل سنوات عديدة عندما كنت صبيّاً في المدرسة قرأت رحلات بلجريف وأُعجبت بمغامراته المدهشة، ولم أكن أحلم بأنني سأعيد قراءة الكتاب ثانية بفكر ناقد في الجزيرة العربية نفسها في محاولة فاشلة لأطابق الحقائق التي أتحصل عليها من تجربتي الشخصية مع سرده الذي اخترع حقائقه وصاغها بمهارة كبيرة.

باءت محاولاتي للمطابقة بالفشل، إلاّ إذا افترضنا أنّ الحقائق الطبيعية للجزيرة العربية قد حدثت فيها تعديلات جوهرية في نصف قرن انقضى منذ زيارته.

---

(١) انضم بلجريف إلى الرهبانية اليسوعية في لبنان، وطاف المشرق متنكراً بزي طبيب سوري، وزار الجزيرة العربية بصحبة بطرس الجريجيري -بطريرك الملكيين الكاثوليك- ثم ترك الرهبانية والتحق بالعمل في السلك الدبلوماسي. توفي سنة ١٨٨٨م العقيقي، المستشرقون، ج٢، ص٦١ (المراجعون).

(٢) كتاب هوجارث (D.G.H) ص ٣٠٧. (المؤلف).

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠٧. (المؤلف).

وافتراض كهـذا رغم أنه غير وارد لذاته إلاّ أن الذي ينفيه بالكامل هي الـصفحات الحبلى بالمعلومات للكتابيْن العظيميْن اللذيْن ترك فيهما داوتي -الذي زار البلاد بعد خمس عشـرة سنة- وصفاً كاملاً ونهـائياً صالحاً لكلّ الأزمان لكلِّ مـا رآه وقاساه أثناء مغـامرته. لقد كان من حـسن طالعي أن تسلّمت الكتابين عبـر صديق[1] لم أكن أعرفـه شخصـياً أثناء إقامـتي بالجزيرة العربـية وأن أقرأهمـا وأنا أنظر لبعض المشاهد التي أوحت بكتابـتهما واللذين يحملان عنـها وصفاً رائعاً. وبحمـاقةٍ تميّز المتطاولين دقَّقتُ في ذلك السرد متصيّداً ما يمكن أن يكون بها من أخطاء، فوجدته بلا أخطاء. سـيكون استطراداً بعـيداً عن جـوهر سـردي إن أطريت على كـتاب داوتي أكثر من هذا.

كان بلجـريف نمطاً آخر من الناس. كان سـرده على الدوام محيّراً ومـراوغاً، وكان دخـوله في التفاصـيل الطبوغـرافية أي الوصف الدقـيق للأماكن وللسـمات السطحية مربكاً للغاية. وكان أمامي خياران: أن أستبعد الدلائل التي أتوصل إليها أنا مستخدماً حواسّي، أو أن أسقـط بياناته ووصفه المناقض للحقائق والمعالم، وأن أعدها نتـاجاً لتفاهة كامـنة وثرثرة لمدّعٍ عديم الملاحظة. ولقد تَبَنَّيْتُ غريـزياً الخيار الأخير حتى ازدادت معـرفتي بالبلاد وتمكنت أن أرى ما رأيت من منظور أوضح، حتى صـار من المستحيل عـليَّ أن أعتمد على تقـاريره خاصةً عندمـا قام بوصف رحلاته التي قيل إنّها أول ما كُتب من مشاهدات أوربى للإقليم الواقع بين الرياض والأفـلاج. كانت كـتاباته عن هذا الإقليم هـي دليلي الوحيـد أثناء الأيام الأولى لرحلتي نحو الجنوب. ومن ثمَّ توصّلت لنتيجة هي أن بلجريف لم يقم في حقيقة

---

(١) مونقاين (J. Mungavin) ، كان حينها الوكيل السياسي بالبحرين. (المؤلف).

الأمر بزيارة إقليم الأفلاج على الإطلاق. كانت المناسبة الأولى التي أبديت فيها هذا الرأي صراحةً مع ملخص للأدلة التي بنيت عليها هذه النتيجة هي تقرير عن رحلتي للأقاليم الجنوبية كتبته فور عودتي للرياض، وطبع لاحقاً كمذكرة رسمية في الهند وفي مصر. وبعد عودتي إلى إنجلترا بقليل، وفي يوم ٢٨ أبريل (نيسان) ١٩١٩م وجهت الانتباه لهذا الموضوع بطريقة أكثر إيجازاً في ورقة عن جنوب نجد، قُرِئت أمام الجمعية الجغرافية الملكية. وفي هذه المناسبة اعترض هوجارث متحدّياً النتائج التي توصلت إليها في هذا الشأن، ومعترضاً على الأدلّة التي بنيت عليها نتائجي. واستجابة لذلك التحدي صعّدت هجومي على صدق بلجريف على نطاق أوسع. وبعد مضي عام تجدّدت لديّ الفرصة في ورقة ثانية قُرِئت أمام الجمعية الجغرافية الملكية وجهت فيها هجوماً قاسياً على وصف بلجريف للدهناء، وهو وصف لم يكن جديراً بالثقة. أرضاني أن تلقّيت تأييداً قوياً لوجهة نظري من جهة لم أكن أتوقعها، بينما امتنع السيد هوجارث من إبداء تعليقات إضافية حول الأمر. أثارت المسألة قدراً كبيراً من الاهتمام في مجالات أخرى ولها من الأهمية ما يستدعي مناقشتها هنا تفصيلياً لسببين. الأوّل: أن بلجريف ليس حياً بيننا ليدافع عن نفسه، لذا يستحق أن يكون الحكم لصالحه ما لم تكن الأدلّة ضده دامغة، وثانياً: لأنّ تاريخ التوغّل في الجزيرة العربية لا يمكن أن يكتب كتابة مرضية حتى يتبيّن موقع بلجريف بين المكتشفين المتعاقبين للجزيرة العربية وهو الأمر الذي اتضح الآن.

لا يمكن أن ينكر أيٌّ ممن قرؤوا كتاب السيد هوجارث أنه قد كان لبلجريف خلال السنوات الماضية أثر قوي عن التصوّر الأوربي للجزيرة العربية. ولكن نسبة للتزايد البطيء والمضطرد في معرفة الأجزاء الداخلية لشبه الجزيرة العربية، فإنَّ

ذلك الأثر بدأ في التناقص. وأنا على يقين أننا الآن نعرف مـا يكفي ليسوّغ لنا أن نراجع مراجعة شـاملة وجهة نظر السيد هوجارث حين قـال: «لابد أن نعتمد على بلجـريف كحـجة لنا فـيمـا يخصُّ الجزء الأكـبر من جنوب نجـد، إذ ليس هناك غيره، وفي الأحساء نحن نعتمد عليـه أكثر من اعتمادنا على أيّ من الآخرين»[1]. وفيما يلي آمل أن أوضّح أن بلجريف وقع في الخطأ عندما تسبب في رفض النتائج التي توصّل إليهـا أسلافه في إطار دراسـة جغرافيـا الجزيرة العربية. صـحيح أنّ أسلافه توصلوا إلى تلك النتائج بمعلومات حصلوا عليها عن طريق وسيط، ولكنها كانت رغم ذلك أكثر قرباً للحقيقة من معلوماته هو شخصياً. ووقع في الخطأ أيضاً عندما تجاهل مسـؤولياته نحو الأجيال التالية له فأعطانا تقـارير تفصيلية عن بعض أجزاء الجزيرة العربية لتؤيدها الحقائق. ولقد اعتمد إلى حدّ كبير أكثر على مخزونهِ من الخيال.

تتبعت من الأحسـاء إلى الرياض - ولكن في الاتجاه المعاكس - الطريق الذي سلكه بلجـريف في آخـر مراحـل رحلته الطويـلة. وكانت إقـامـتي بالرياض في مجملها سبعين يوماً، وبـقي هو بها اثنين وأربعين يوماً. وترسّمت خطاه مرة ثانية من الرياض للخرفة في الأفلاج. أمّا في الشـمال فلقد ارتحلتُ فوق أرضٍ سار هو فوقها بين بريدة وقصيباء، وبين بريدة والزلفي. ولا أعرف شيئاً عن الإقليم الواقع بين نقطة بدايته في معان من جانب والجوف وحائل والقـصيبة من جانب آخر. أما عن الإقليم بين الزلفي والـرياض فلا أسـتطيع الحـديث إلاّ عن وادي حنيفـة بين سدوس والعاصمة. وفي كل جـزء من أجزاء الرحلة التي كانت على مدى بصري

(١) كتاب هوجارث (D.G.H) ص ٢٣٦. (المؤلف).

فـإن بلجريف يمكن أن يُدان بأخطاء جـسـام، ويصيـر أثرها المتراكم جـد عظيم. ولكنني سـأبدأ برحلتـه من الرياض للأفلاج إذ كـان الوصف لهـذه الرحلة[1] هو الذي أثار شكوكي حول صدقه.

يبدأ بلجريف الكتابة بطريقته السـهلة المعتادة وكأنه سيصف رحلة قليلة الإثارة والأهمية فـيقول: «حتى لا أقطع التواصل اللاحق لسردي حـول الرياض، سأقوم هنا بإدخـال كلمات قـلائل حول رحلة قـصيـرة قمنا بهـا -بركات وشـخصي - للأفلاج» وقـام «استناداً على الذريعة الملائمـة عادة» بمزاولة مهنة طبيّـة، وفي أحد أيام الأسبوع الثانـي من نوفمبر[2] (تشرين الثاني)، يصحـبه تابعه الأمين، بركات وأحد المعارف الحديثين: بِدَع الذي لم يمنعه اسمه غير الملائم من أن يكون «رفيقاً ذا حيوية وطباع سهلة، ومحبـاً عظيماً للهو والمرح». كان هذا الرجل هو الذي اقترح الرحلة.

تتبعـوا طريقاً في اتجاه الجنوب الغربي وعـبروا وادي حنيفة حتى بلغـوا هضبة جنوب الوادي، وكانت غير مستوية السـطح وأكثر وعورة من تلك الموجودة شمال الوادي، ولكنها كانت من نفس الحجر الجيري والتكوين الكلسي، ويدرأ عنها تهمة العـقم والفراغ وجـود بعض الأشـجار هنا وهـناك، ووجود قـدر لا بأس به من أعشاب المراعي. وكـان مجرى السيول الشتـوية -ولمسافة عدة أميـال- يسيل نحو وادي حنيفة[3]، ولكنها صارت بعـد ذاك تجري في اتجاه جنوبي. في أمسـية اليوم

---

(١) W.G.P الجزء الثاني، ص ص٧٩-٨٢ . (المؤلف).

(٢) عام ١٨٦٢م. (المؤلف).

(٣) أي في اتجاه شمالي إذ أنّه وفقاً لإفادة بلجريف (راجع كتاب بلجريف الجزء الثاني ص ١٢٥) وادي حنيفة نفسه لا يجري إلى الشرق أبعد من منفوحة. (المؤلف).

الأول بلغوا ونامـوا بقرية الصفرا على حـدود إقليم العارض، وهي قرية بهـا فقط ستـون مسكناً، كان بعضـها من فروع النخـيل والغماء (قش السقف) وتحـيط بها أسوارٌ خربة من الآجُرّ الطيني، ويزينها مسجد جديد أنيق.

وكان طريقهم في اليوم التالي يجري لعدّة ساعات فوق مرتفعات، وتعترضهم من حين لآخر أودية رمليـة تتحدَّر بالتـدريج ولكن بطريقة ملحـوظة نحو الجنوب الغربي. وكانوا الآن في الأفـلاج، وفي حوالي منتصف النهار مروا بقـرية مشالله الكبيرة التي كـان بها امتداد طويل لبساتين النخـيل، ولكن كثافتها كـانت ضئيلة، وكانت «الآبار غير وافرة الماء». هنا لاحظ بلجريف أن وجود القطن أكثر كثافة منه في إقليم العارض، كـما كان الرجال والـنساء يرتدون ملابس أقلّ طولاً. احتـموا أثناء قيظ الظهيرة في منزل صغير بالقرية، وادَّعى بِدَع معرفته لبائع متجوّل من بين أهل القرية.

يجري الطريق من مشالله للخرفة «في الغـالب في ممر ضيّق عميق لدرجة ما» وكان جـافاً إلاّ من بقايا سـيول الشتـاء، وتغطيّ جانبيـه المرتفعين أعشـاب ممتازة وقطعـان، بينما كـان في بطنه «قليل مـن بساتين النخـيل، التي تحـيط بها بيـوت المزارعين». وداهمهم الظلام قبل أن يبلـغوا الخرفة فهجـعوا في السهل الذي تتناثر فيه النخيل بجوار الأسوار.

وفي اليوم التالي نسوا «الذريعة الملائمة» وهي العمل الطبي الذي أتى بهم إلى هنا، ورأوا «أنّه ليس من الـعقل أن يظهـروا أمـام حـاكم الإقليم الذي يقـيم هنا» ورفض بِدَع زيارته، كانت المدينة- إضافة لأنّها مقر الحاكم - تحتوي على أكثر من ٨٠٠٠ من السكان، وكان أكثـر من نصفهم خلاسيين «يكتـفون من الكساء بلفٍّ

قماش بـالية حول الخصـر». ويذكر بلجريف هنا شيـئاً عن الضيافـة الهزيلة وعن «عوز العـلاقات الاجتمـاعية وقسـوة الطباع التي تذكر بوادي الدواسـر الذي تبدأ حدوده الأولى في حقيقة الأمر بعد خمـسة عشر إلى عشرين ميلاً من هنا في اتجاه الجنوب» بقوا في الخرفـة حتى بعد الظهر، ثمّ قفلوا عائدين سـالكين الطريق نفسه الذي أتوا عبره. ولكنه لم يصف رحلة العودة.

وقبل أن أشـرع في نقاش المشـاكل التي يثيرها هذا المخـتصر الـشامل لرحلة بلجريف نحو الجنوب يكون من الملائم أن نفكر في بعـض المعلومات التي تجمَّعت أثناءها، وهي باعتراف الكاتب بلغته عبر وسيط: من بدع وآخرين من المقيمين في الصـفرا ومـاشالله والخـرفة. وبعـد ذلك يمكن أن نهمل هذه المعلـومات. «إذ أن الطريق المعروف جداً والذي يقود عبر وادي حنيفـة لشمال الأفلاج يمرّ عبر شقراء، ثم جنوب طويق حتى مكة، ولقـد سمعت مراراً عن مسـاراته وأماكن الوقوف به بتفـاصيل من الكثيرين ممـن سافروا عبـره في أي من الاتجاهين. وروايات هؤلاء تتطابق تماماً مع ما يبدو في الخارطـة الألمانية التي نُشرت في جوته في عام ١٨٣٥م بعد أبحاث وتقـصي نيبور واهرنبرج وروبل؛ هذا هو الطريـق العام لوسط الجزيرة العربية». ولسوء الحظ لم أتمكن من الحصول على نسـخة من الخارطة المشار إليها، ولكننا يمكننا أن نفـترض أن معـالمها الأساسيـة قد ضُمِّنت فـي تلك الخارطة التي نشرت[1] مع كتب بلجريف، تلك الخارطة توضح طريق قـوافل يجري من شمال غرب شقـراء، ثم عن طريق طويق بطول مجرى وادي حنيـفة إلى الرياض، ومن هناك يتجـه نحو الجنوب الغربي عـبر الخرفة ووادي الـدواسر إلى بيشة، وأخـيراً

(١) رسمها ج. سولزر، برلين وطبعَت بواسطة ف. بارث ١٨٦٥م. (المؤلف).

يتحـول نحو الشـمال الغـربي للطائف ومكة. وهذا يعني أن الطريق العـام لوسط الجزيرة العربيـة، والذي يبدأ أحد طرفيه في مكـة والطرف الآخر في مكان ما إلى الشمال الغربي من شقراء، يتتـبع عن قصد ثلاثة أضلاع لمستطيل بين مكة وشقراء بدلاً من اتباع خطّ مباشر بين هاتين النقطتين. والآن نحن نعلم علم اليقين أن مكة مرتبطة بالقـصيم وبشقـراء وبالرياض، هذا إن لم نذكر ارتباطهـا بالأفلاج ووادي الدواسر بطرق مـباشـرة يقطع بعضـها طويق، بينما لا تجـري أيّ من هذه الطرق جنوب طويق. ولا يوجد طريق عام كالذي تمّ وصـفه في هذه القطعة المنقولة عن الكتاب. إن كان بلجريف قـد ذهب حقيقة إلى الخرفـة فلا بد أنه كان سيكون في وضع يمكنه من معرفة هذه الحقيـقة، ولكن تقريره يوضح أنه فشل في رؤية حاجز طويق الضـخم الذي كان يقع بينه وبين الغـرب مُحـوّلاً اتجاهه طوال الوقت نـحو الجنوب. وبسبب الفشل نفسه في رؤية حـاجز طويق الذي صار ينحدر فوق سطح الإقليم نحو الجنوب الغـربي بدلاً عن الانحدار نحو الشرق والجنوب الشـرقي كما هو الحال في حقيقة الأمر.

كان وصـفه لوادي الدواسر والموقع الذي حـدّده له بالنسبـة للخرفة بعـيداً عن الحقـيقة. لا يمكن لأحد يسكـن في الخرفة أو على علم بالإقليم الواقع خلفـها أن يكون هو الذي قال له إنّ الحـدود الأولى للوادي قد يَصلُ إليها الإنسـان من الخرفة في رحلة يوم واحد في المتوسط، أو كما عبّر هو: على بعد خمسة عشر أو عشرين ميـلاً. هذا التقدير للمسـافة التي يمكن أن تُقطع في اليوم الواحـد له أثر على جزء آخر من هذا النقاش. ولكن الرجل لا يحوجنا لكثير عناء في هذا الجانب إذ يذكره في أكثر من مناسبـة في الصفحات نفسها التي يصف فـيها رحلته للجنوب. «طول الوادي» هكذا يصرّح «يُقال إنه مسيرة اليوم في المتوسط هي عشرون ميلاً، للقوافل

بالطبع، وهو تقدير مناسب. ومرة ثانية يقول: «تبعد قلعة بيشة مسيرة يومين - أو أربعين ميلاً- من وادي الدواسر» وهو بهذا لا يجعلنا نشك في أنّ تقديره لرحلة يوم واحد بالإبل، مع السير سيراً معقولاً، هو عشرون ميلاً [1].

وصف بلجريف السُّلَيّل كالآتي: «إقليم بائس فقير مليء بالتلال الرملية وبه قليل من الماء». لقد سمع أنه يقع على مسيرة ثلاثة أيام جنوب وادي الدواسر، وهذه نقطة أخرى؛ لم يكن تقصّي الحقيقة حولها في الأفلاج لِيُضَلِّلَه. ثم إنه يرى أن السليل هي أول واحة هامة في طريق يسلكهُ الناس مراراً وتكراراً بين مستوطنات الأفلاج ووادي الدواسر. ويضع نجران على مسيرة يومين فقط من السُّلَيّل. ولكن في النهاية هذه أخطاء مبنية على معلومات سماعية، ولذلك يمكن التماس العذر له فيها لحدٍّ ما. كما أنّها تخصّ إقليماً سأجد الفرصة لوصفه تفصيلا في الفصل التالي.

أتحوّل الآن للنظر في وصف بلجريف لزيارته للخرفة في إقليم الأفلاج. سأركّز جدلي حول مسألة المسافة بين الخرفة والرياض، وإمكانية أو احتمال

---

(١) استناداً على هذا التقدير سأقوم بتسجيل نصٍّ وصف به سيره من حائل لبريدة (راجع الجزء الأول، ص ٢٣٥)، يقول «كنا نسير كل يوم اثنتا عشرة إلى أربع عشرة ساعة بسرعة تبلغ ٥ أميال في الساعة، أو أكثر من ذلك بقليل، وهي السرعة العادية لإبل الركوب» حدث هذا لقافلة تضم سبعةً وعشرين أو ثمانية وعشرين شخصاً منهم التجار والنساء والأطفال، وبرفقة عدد قليل من الإبل التي تحمل المتاع الثقيل، وتمشي معهم جنباً إلى جنب. واستغرقت الرحلة بين حائل وبريدة تسعة أيام. وإذا قلنا إن هذه الرحلة استغرقت ثمانية أيام فقط وليس تسعة، وكان السير فيها لمدة عشر ساعات فقط في اليوم، وبسرعة خمسة أميال في الساعة، لا أكثر تصبح المسافة بين البلدين ٤٠٠ ميل. ولكن بسرعة عشرين ميلاً - في المتوسط - في اليوم تكون المسافة ١٦٠ إلى ١٨٠ ميلاً. وفي حقيقة الأمر فإن المسافة المباشرة هي ١٥٠ ميلاً. (المؤلف).

قطعهـا، في ظل الظروف التي أشار إليـها، في يومين، أو فلنقل في ست عـشرة ساعة[1].

كان تقديره للسير المعقول للقوافل في اليـوم الواحد هو عشرون ميلاً كما رأينا من قبل. وهو لم يوضح سرعته في هذه المناسبة، ولكن الإشارة في خارطته تجعل المسافة كلهـا حوالي ٦٠ ميلاً وهو تقـديرٌ اقتنعت أنا بأنه تبناه بمحض إرادته إذ أنه أبان صراحةً فـي تقديمه الأفلاج لقرائه قـائلاً: «ذلك الإقليم الذي توضح عدد من الخرائط - لا أدري لماذا - يـبعد مـئتي أو ثلاث مـئة ميل عن الـعارض، وهو في حقيقة الأمر مجاور لهـا، ويفصلها عن وادي الدواسر» ويسعى الرجل في خارطته لتـوضيح الأقـاليم الثلاثة ومـوقع كل منهـا بالنسبـة للأخريات، وهو أمـرٌ يدونه بوضوح في كتابه. ولا أرى سبباً لافتراض أن ذلك لم يكن يُقصد به تحديد وجهة نظر الكاتب حول المسافـة أيضاً. ومهما يكن من أمر فلقـد بلغ أعتاب الإقليم في منتصف الـرحلة أي على بعد ثلاثين مـيلاً أو نحوها، أي مـسيـرة يوم واحد من الرياض.

عندما شرعت أنا في رحلتي مقسماً إياها إلى مـراحل، قاصداً الغاية نفسها، وجدت صـعوبة في التوفـيق بين ما رواه سلفي والوقت الطويل الذي اسـتغرقـته رحلتي قبل بلوغي أعـتاب الأفلاج، أو فـيما يختص بالمسـافة التي قطعتـها وهي ١٥٠ ميلاً إلى الجنوب الغربي من الرياض، وهـي المسافة التي تفصل بين الرياض

(١) كان الموسم هو بداية نوفـمبر (تشـرين الثاني). نحن نعلم أن المجمـوعة توقفت في وقت الظهـيرة وأثناء الليل، هذا إن لم نذكر الوقفات الصغـيرة للإفطار. لهذا يبدو سير ثماني ساعات أمـراً معقولاً في غياب أيٍّ دلالات على العجلة. (المؤلف).

والخرفة، وفقاً لخارطة ريتر[1] للجزيرة العربية، ولكنّي تعزّيت بالقصة التي رواها أحد رفاقي عن رجل أدّى صلاة الجمعة[2] في الرياض وبدأ رحلته نحو الجنوب فبلغ ليلى ليهجع مع أهله فيها في ليل يوم السبت. لم تساورني الشكوك حول رواية بلجريف حتى بلغت حدود سهل الأفلاج ووجدت أن الخرفة لم تكن تبعد سوى اثني عشر ميلاً أو نحوها عن أول مستوطناتها. وزادت شكوكي عندما فشل رفاقي في التعرّف على قرى الصفرا وماشالله.

عندما شرعت في رسم خارطةٍ للطريق الذي اتبعته في الرحلة، توصلتُ في أول مقال كتبته عن الموضوع لنتيجة وهي أنه لا يُمكن أن يكون هناك طريق بين الرياض والخرفة يقلّ عن ١٤٠ ميلاً [3]، وبدأت أشكُّ في أن يكون بلجريف قد تمكن من طيِّ هذه المسافة في يومين. كانت الحالة التي ذكرتها آنفاً ضد منطقي ولكن يبدو لي بعيداً عن التصديق أن يكون بلجريف قد انطلق بهذه السرعة العظيمة دون إشارة أو تعليق عنها. ولم أعلم إلاّ لاحقاً عن تَصوّر بلجريف المتحفظ جداً عن المسافة. بيد أنني في مرحلة لاحقة، عندما كنتُ أعدُّ ورقتي للجمعية الجغرافية الملكية من خضمّ المدونات التي لم أكن قد فحصتها بعد ومن الخرائط التقريبية للطرق التي سلكتها، وجدت لزاماً عليّ إن كان لي أن أشنّ هجوماً استهدف فيه صدق وأمانة سلفي أن أراجع مرئياتي السابقة بمزيد من الحرص. واقتنعت نفسي بأن المسافة بين الرياض والخرفة لاتقل بأيّ حال عن

---

(١) نشرت في عام ١٨٥٢م، وأوردها هوجارث في كتابه ص ١٧٠. (المؤلف).

(٢) لا يمكن أن يكون قد بدأ رحلته -والحال هذه- من قبل الساعة الواحدة بعد الظهر. وبين هذه الساعة ومنتصف ليل السبت: ٣٥ ساعة، ولكنها ساعات من السير السريع المتّصل. (المؤلف).

(٣) التقرير الرسمي المشار إليه أعلاه. (المؤلف).

١١٠[١] أميال، بينما حافظت على اقتناعي العام بأنه لم يكن باستطاعته أن يقطع - وبالفعل لم يقطع- تلك المسافة في يومين. ولقد اعتمدت في هذا الرأي على عوامل أخرى لا تقل أهمية عن عامل المسافة. لقد غاليتُ دون شك في تمسّكي بقضية مبنية فقط على عنصر المسافة، ولكن السيد هوجارث تطرّف في الاتجاه الآخر عندما بدأ نقاشَه قائلاً[٢]: «لنأخذ حجة السيد فيلبي الرئيسة. بدايةً هو يقول إنه من المستحيل على بلجريف أن يقطع مسافة ١١٠ أميال على ظهور الإبل في يومين، أي ٥٥ ميلاً في اليوم، أو على الأقل أنه كان من غير المحتمل أن يحقق ذلك، بيد أنّ قطع مسافة ٧٠ إلى ٨٠ ميلاً في اليوم هي سرعة عادية جداً على إبلٍ يمتطيها من لهم سبب للعجلة؛ مثلاً لمن يحملون البريد، أو لرسلٍ يحملون أشياء مهمة.

نعم، لم يصرّح بلجريف أنه كان على عجلة من أمره بصفة خاصة، لكنّه كان يسير مع مرافق واحد. لقد قام بالرحلة لسبب معيّن وأظنّ أننا لا بد أن نقتنع أنه ركب بالفعل بهذه السرعة، وأنه قطع ٥٥ ميلاً في اليوم. إنه يقول إنه كان في نهاية اليوم الأول على مشارف الأفلاج، وهي مسافة ٥٠-٦٠ ميلاً من الرياض، وفي اليوم التالي، وفي ساعة متأخرة من الليل وصل إلى جوار الخرفة. لقد أخبرني كولونيل لورنس قبل ثلاثة أيام فقط أنّه في خلال الخريف السابق ركب رجلٌ من الزلفي فبلغ ينبع[٣] ثم عاد إلى الزلفي بعرض نجد بسرعة بلغت ١٣٠ ميلاً في اليوم. لقد استخدم ثلاثة من الإبل؛ ركب إحداها في الثلث الأول من

---

(١) J.R.G.S ، مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٧٦ (مجلة الجمعية الجغرافية الملكية). (المؤلف).

(٢) J.R.G.S مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٨٨. (المؤلف).

(٣) بالتقريب ٥٠٠ ميل في كل اتجاه. (المؤلف).

الرحلة ثمّ غيرها ليصل بها إلى المطية الثالثة ويستبدلها بها للجزء الثالث. وفي رحلة العودة امتطى المطايا نفسها من المواقع نفسها التي تركها فيها. هذا يوضّح أن تحمّلاً مثل هذا في مقدرة الإنسان. كان بلجريف قد ركب كثيراً في دروب الجزيرة العربية، ولعله صار ماهراً في ركوب الإبل».

إنني أجد بعض الصعوبة في أن أقبل رواية السيد هوجارث عن السرعة الفائقة والتحمّل كأمرٍ لا يتطرق إليه الشك رغم أنه يروي القصة على ذمّة الكولونيل لورنس، إذ أنّ المصدر النهائي في أحسن الأحوال سيكون رواية أعرابي، وفي أمور كهذه فإنّ للعربي نزوعاً لاستخدام خيال جامح، ولا ينبغي لنا أن نأخذ ما يرويه كما هو. ووفقاً لما أعلمه لم يكن هناك شاهد يعتمد عليه في الزلفي في خريف ١٩١٨م ليسجل بداية ونهاية ذلك السباق غيري أنا، ولم أسمع عنها شيئاً رغم أنني كنت في الزلفي نفسها من يوم ٥ إلى ٧ أكتوبر (تشرين الأول)، وفي جوارها بالقصيم دون انقطاع منذ ٢٣ أغسطس (آب) وحتى أكتوبر (تشرين الأول) في خريف ذات العام.

ومهما يكن الأمر فإنّ هذا لا يلقي ظلالاً من الشك على صدق اقتناع السيد هوجارث بأن هناك سرعات أعظم لركوب الإبل عن تلك التي أثرتها فيما يختص ببلجريف فهي ليست مستحيلة وليست غير معتادة ولكنها في الوقت ذاته لا تغير اقتناعي بأن بلجريف لم يسافر ولم يدع السفر بهذه السرعة ١١٠ أميال في يومين -في مناسبة سفره المزعوم للأفلاج. وبعد أن قرأت ورقتي أمام الجمعية الجغرافية أخضع اختصاصيو الجمعية الجغرافية الملكية كل المواد التي جمعتها أثناء إقامتي في الجزيرة العربية للفحص والتمحيص وضبطوها وفقاً للمواقع التي حدّدتها أنا فلكيّاً، وكانت النتيجة أن الخرفة تراجعت لمسافة ١٧٠ ميلاً بخط مباشر من

الرياض، وهي بهذا توافق لدرجة كبيرة الموقع[1] الذي ظهر لها في خارطة ريتر القديمة، وفي الوقت نفسه زادت من صعوبة تصديق ادعاء بلجريف بزيارتها. أمّا بالنسبة للسؤال عن المسافة المعقولة في ظروف عاديّة لمسيرة يوم واحد بالإبل، فلقد سجِّلتْ من قبل حالات كثيرة لسرعات خارجة عن العادة، أو أنها لم تسجل ولكنها ما زالت في أذهان من مرّت بهم ظروف جعلتهم يعلمون شيئاً عنها، لذا لا يسعني إلاّ أن أسجل وجهة نظري الشخصية، وهي أنه إذا استبعدنا السير أثناء الليل، وكان السير نهاراً فقط، التزاماً بعادة العرب الذين يُعطون اعتباراً أكبر لراحة المطايا وليس لراحتهم، إلاّ إذا تعرضوا لضغوط كبيرة، أقول في ظل هذه الظروف المعتادة تكون سرعة ثلاثين ميلاً[2] في اليوم سرعة جدّ معقولة، وأي شيء أكثر من ذلك فهو بلا شك إنجازٌ رائع، بيد أن الرحلة تكون -من ناحية أخرى- غير مريحة.

والتهمة الثانية التي أوجهها لبالجريف تنتج عن ذكره الخاص لقريتين هما الصفرا وماشالله بمعزل عن وصفه للطريق الذي سلكه. وفي رحلتي للأفلاج اتبعت أنا طريقاً دائرياً بعض الشيء سالكاً طريق وادي حنيفة وإقليم الخرج حتى الطرف الأعلى من وادي العقيمي، ومن ثمّ عبر مرتفعات رجد حتى تخوم سهل الأفلاج. بينما وجدت نفسي في طريق العودة في الغيل التي لا تبعد كثيراً عن الخرفة وليلى، ومن ثمّ سرتُ فوق المنحدرات الخارجية لطويق -موازياً على مسافة ليست ببعيدة- لطريق الذهاب مرة ثانية، وعند نهاية سلسلة صخور الأحمر في

---

(١) إلاّ في مسألة الاتجاه، إذ أنّ الخرفة تقع حقيقة جنوب الرياض وليس في الجنوب الغربي كما ظهر في الخارطة. (المؤلف).

(٢) هذا إن كان يحمل معه كمية معقولة من الأمتعة الخفيفة وأدوات المطبخ. (المؤلف).

الطرف الأعلى من وادي العقـيمي. وبعدها سـرت في خط مباشر بقـدر المستطاع بالقرب من الحافة الشرقية لإقليم الحوطة لنلتقي مرة ثانية بوادي حنيفة في الحائر.

والآن لا يمكن أن يُنكر أحدٌ أن المسافر مـن الرياض للأفلاج لابد أن يتّبع أحد هذين الطريقين أو طريقاً وسطاً بينهما [1]، حيث لا تحفّ بالطريق عوائق تمنع تقدّم من يسلكونه، وليس من المعقول لأيّ مسافر يتخذ أيّاً من هذه الطرق أن يضمر بين مستوطنات الخرج الخصيبة من جانب وواحات الحوطة العظيمة من جانب آخر دون أن يلحظ أيّاً منها. لم يكتفِ بالجريف من قرى الواحات إلاّ بـ: الصفرا وماشالله، والأخـيرة ضـمن حدود الأفـلاج، ولا بد لنا أن نصدّق أنهـا قد زالت عن وجـه الأرض من خلال نصف قرن من الزمان دون أن تخلّف أثراً أو شائعة عن وجودها السابق. ولم يسمع حداة ركبي - وبعضهم على معرفة لصيقة بكل الأصقاع - عن هذه القرى.

والنتيـجة الوحـيدة التي يمكن الوصـول إليها هي أن تلك القـرى ليست غـير موجودة في الوقت الراهن فحـسب، ولكنها لم تكن موجودة على الإطلاق. ولا شك أن اختلاق قرى وهميـة غير موجودة إلاّ في خيال صاحـبها هوجارث خطير لمن يدّعي أنه مكتشف، ولكن السيد هوجارث الذي كـان يشير لوجهة نظري حول هذا الأمر قلّل من شأن خـطورتها قائلاً [2]: «إن السيد فـيلبي يلقي أهمية عظمى

---

(١) بما أنّ بلجريف يبيّن أنّه عبر وادي حنيفة، يصبح من غير الضروري أن نذكرما كان يمكن أن يحدث لو أنه سلك طريقاً إلى الشـرق من الطريق الذي سلكته في رحلة الذهاب. ومن ناحية أخـرى إذا كان قد سلك طريقاً إلى الغرب من طريقي الذي سلكته في العودة، فإنه كان سيجـد نفسه وقد اعترضته سلسلة صخور مجمع الهـائلة، ولاحظ الالتفاف حولها عن طريق الحوطـة أو عن طريق الحريق. وهو شيء أقرَّ بأنه لم يفعله. (المؤلف).

(٢) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (J.R.G.S) مارس (آذار) ١٩٢٠م ص ١٨٨-١٨٩. (المؤلف).

على الأشياء البسيطة التي لاحظها بلجريف وعن عدم الدقّة في بياناته، ولقد سبق أن أعطيتكم توضيحاً جزئياً حول ذلك الأمر، إنّه لم يكن يتذكّر ما رآه بجانب الطريق عندما بدأ يكتب عن الرحلة بعد مضي عام أو يزيد بعد عودته لأوربا. إنني لأتساءل إن كان السيد فيلبي قد حاول أن يجد طريقاً سلكه بلجريف دون أن يكون هناك من يشك في أنه قد سلكه فعلاً. ولقد كان عليّ أن أمرّ بتجربة كهذه، لقد كان ضرورياً أثناء الحرب أن أكتب تقريراً عن طريق معيّن بين بريدة والزلفي. حملت ضمن كتابات أخرى ما كتبه بلجريف عن ذلك الطريق لكنني لم أعرف له بداية أو نهاية، وكان من السهل عليّ أن أقول أنه لم يَزُر بريدة على الإطلاق قياساً على القول من أنه لم يزر الأفلاج. إن بالجريف لا يدرك تماماً كيفية كتابة التقارير، وكانت ذاكرته معيبة للحدّ البعيد. إنه يُعطي ما يبدو في الظاهر تفصيلاً دقيقاً عن الطريق. وفي حقيقة الأمر وباستثناء أنه قد انتقل من نقطة لأخرى، كل ما يأتي بين ذلك هو إلى حدٍّ كبير من وحي الخيال». ولا أرى دفاعاً عن متهم أكثر ضرراً به من شهادة هوجارث عن بلجريف.

عندما هاجمت بلجريف فيما يتصل بهذه القرى الوهمية، أبرزت ما بدا لي تعليلاً مقبولاً لانحرافه عن طريق الفضيلة في هذه الحالة. بيد أنني كنت أفترض أنه لن يُثار جدلٌ حول صِحّة المعالم الأساسية لمغامراته وسرده. لذا كنت مهتماً بأن أوضّح أنه عندما يتعلق الأمر بالتفاصيل فإنّ شهادته قد لا تقبل في أغلب الأحوال دون بعض الاعتراضات، أو بعبارة أخرى أنه كان قادراً على تزيين قصصه بكثير من المغامرات الوهمية وبقدر وافر من التفاصيل المختلَقَة المعتمدة على الخيال فحسب. لكنني بعد قراءة ثانية متأنية لرحلاته في ضوء تجربتي الشخصية بدأت أتساءل عن مدى صدق بلجريف حتى في أساسيات ادعاءاته نفسها وليس

التفاصيل، ولم تتمكن تعليقات السيد هوجارث أن تزيل شكوكي. أمّا عن تحدّي السيد هوجارث لي لأطبّق طرق النقد نفسها لوصف بلجريف لطرق أخرى «لايشكك» أحدٌ في أنه قد سلكها، فإنّ لديّ ما سأقوله بعد برهة وجيزة.

لذا؛ فإنني أفترض في الوقت الراهن أنّ قدراً كبيراً من الدلائل كانت ضد مبدأ قبول ادعائه بزيارة الأفلاج، ولكن بنفس القدر لم يكن هناك من الأسباب ما يشكك في أنَّه أقام بالرياض. ولقد تخيّلت صورته هناك في الرياض جالساً في غرفة القهوة الخاصة به مع الرجل ذي الاسم غير الملائم؛ بَدَع، التاجر النجراني الذي لم يكن بلجريف ليجد في العاصمة السعودية خيراً منه ليخبره بهذا الاسم- إلى الرياض في بعض شأنه بوصفه تاجراً، ولا بدّ أنه قد أتى مسافراً عن طريق وادي الدواسر والأفلاج. وإن افترضنا أنه توقف بالخرفة فمن الطبيعي أنّه سافر منها سالكاً أقصر الطرق المباشرة، وبما أنَّه عربي فمن المؤكد أنّه قد سار مواصلاً الليل والنهار دون أن يتوقف إلاّ لتناول وجبة سريعة أو للقيلولة أثناء ساعات النهار القائظة. وإن قال إنّ الرحلة استغرقته يومين فلعله قال ليلتين.

وهكذا يمكننا أن نفترض أنّه قد بدأ رحلته في وقت الأصيل في اليوم الأوّل، ثم سافر طوال الليل، وتوقف قليلاً في الصباح لتناول وجبة خفيفة في منطقة انصلح وواصل الرحلة، ولعله سلك طريقي نفسه في رحلة العودة ماراً بالقرب من منبع قناة الفرع، ثم توقف للقيلولة في منحدرات طويق العارية في (الصفرا) أو كما يمكن أن نسميها القفر. وليلة أخرى سريعة السير تكون قد أوصلته إلى الرياض عند الظهيرة في اليوم الثالث. هذا الأداء عادي للعربي المسافر وحيداً لهدف معيّن، وهذه السرعة مختلفة جداً عن السرعة التي نسبت زوراً لبلجريف إن صدّقناه. ربما أنّ بدع له من قوة الملاحظة أكثر مما لدى بلجريف، فلقد رأى قرىً

كثيـرة وواحات في الأفلاج، ومن المحتمل في الخـرج أيضاً أو وادي الفرع ولا بد أنّ بدع هذا قد وصف هذه القرى أو تحدّث عنها بـطريقة العرب المشوشة، ولكنّ بلجريف هو الذي زلّ بأن وزعها على المنطقة ليعطي مسـحة من مصداقية لقصته. ولكنه لم يتذكر عندما «جـاء ليكتب عن تلك الرحله سوى هذين الاسمين؛ كتب أحدهمـا بطريقة ملتـوية وهو من الأسمـاء التي ذكرها مـحدِّثُه عن الوقـفات في الصحـراء التي يطلق عليها أيضـاً الصفرا أو القـفر، وما كـان من بلجريف إلاّ أن عدها قرية وألبـسها حُلَّةً من النخيل والسكان، والاسم الثـاني هي قرية نسلة التي تحوَّرت إلى ماشالله، ووضعها خطأً في داخل حدود الأفلاج بصفتها واحة يانعة.

كان هذا التفسير قد بدا لي حينهـا معقولاً ليوضح سقطته. ولكن أيّ رأي يُسَلِّم بأن ادعاءه بالإقامة في الرياض كان ادعاءً زائفاً، هو رأي غـير مقبول ولقد أوضحت قبل قليل عن الإشارة لمفتاح اللغز ويبـدو أنه يؤكد دون مدعاة للشك أن بلجريف لم يستمد معلوماته عـن قرية ماشالله من رواية النجراني. ولكن من أين أتى الاسم؟ لا أستطيع أن أجزم.

ولكن بما أنه كان مـسؤولاً عن الطريقة الإمـلائية التي كُتب بهـا الاسم فإنه من المثيـر أن نلاحظ أنه لم يكن أول من وصفـها على خـارطة للجزيرة العـربية، إذ أن خـارطة ريتر التي أشـرت إليـها سـابقاً توضِّحُ في مـوقع بنفسِ البـعد والاتجـاه من الخرفة[1] كذلك الذي وضع فيه بلجريف ماشالله، مستوطنة تُسمَّى مشيلة والتي تقع دون شك في مـوقع واحـة أُسـيلة، المسـتـوطنة الأولى لإقليم الأفـلاج للقـادم من الشمال، والتي يبدو منها نخيل الخـرفة، هذا إن لم نذكر عدداً من الواحات الأخرى

(١) إن توزيع الأسماء على خارطة ريتـر كان بالطبع اصطلاحياً محضاً. كانت أسـماء القرى ومواقع التوقف مستمدة من مصادر عن طريق وسيط. (المؤلف).

القريبة التي تُرى بيسر عبر السهل. على أيّ حال فإنّ الافتراض الغالب أنّ بالجريف قد التقط الاسم من خارطه ريتر، وإن لم يكن كذلك، فقد أخذه من بدع، أو من ملاحظاته الخاصة. ولا يجدي الكثير من الحديث عن الصفرا رغم أنّ خارطة ريتر تأتي مرّة ثانية لإنقاذه دون أن يكون هناك مسوّغ كافٍ بأن تبيّن موقعاً بذلك الاسم في المرحلة الأولى[1] بعد الخروج من الرياض في اتجاه الجنوب الغربي.

ويكفي هذا عن نقطتي الجدل. كما أنني لا أكاد أصدق أنّ أحداً -حتى بلجريف- يمكن أن يصف الطريق الذي يمرّ عبر السهل المنبسط للأفلاج من أُسيلة إلى الخرفة، أن يصفه بالطريق الصخري الغائر لبعض العمق في المجرى الحجري، أو ألا يلحظ الواحات الغنية مثل ليلى والسيح والأخريات التي تنتشر في السهل. وفوق هذا، ففي الوقت الذي كتب عنه بلجريف، كانت المبرّز في واحة ليلى هي مقر حاكم الإقليم وليس الخرفة.

ولكنّ أعظم الجرائم التي ارتكبها بلجريف في حق الجغرافيا كانت خطيئة إغفال لا يمكن أن تغفر لرجل يتخذ صفة المكتشف. إنه يبدأ وصف رحلاته هكذا[2]: «دعنا نحاول على وجه حاسم أن نحصل على معلومات صحيحة وشاملة بقدر مناسب عن شبه الجزيرة العربية. إننا نعرف كثيراً عن شواطئها، ولقد تمّ اكتشاف الكثير من أقاليمها البحرية، إن لم يكن بصفة دقيقة فعلى الأقل بطريقة مقبولة. ولم تعد اليمن والحجاز ومكة والمدينة أسراراً مجهولة لنا، كما أننا لا نجهل أقاليم حضرموت وعمان. ولكن الأعماق الداخلية للإقليم المتسع مجهولة

(١) هذا الجزء والأجزاء الباقية من الطريق الذي نتحدث عنه تم توزيعها اصطلاحياً، وكثير من الأسماء يستحيل التعرف عليها. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P ، الجزء الأول ص ١-٢. (المؤلف).

لنا. ماذا نعرف عن سهولها وجبالها؟ عن قبائلها ومدنها؟ عن حكوماتها ومؤسساتها؟ عن سكانها وطرق حياتهم وعاداتهم وعن حالاتهم الاجتماعية؟ هل تقدّموا في مراقي المدنية أم ما زالوا غارقين في غيابة جبّ البربرية؟ ماذا نعرف حقيقة عن هذه الأشياء سوى تقارير ناقصة تعوزها الدقّة؟ لقد حان الأوان لملء هذا الفراغ في خارطة آسيا. وسيكون هذا مسعاي مهما عرّضنا الأمر للمخاطر، وإمّا أن تكون الأرض المترامية الأطراف أمامنا مقبرتنا، أو أننا سنزرعها بكامل عرضها لنعرف ما تحويه، من الساحل إلى الساحل».

إنّه ليصعب تصديق أنَّ من بدأ مشروعه بهذا القدر العالي من الطموح، ومن شملت مقدرته على الملاحظة والتمعّن في تفاصيل امتدت لأمور مثل الفرق في أطوال القمصان التي يلبسها الرجال في الأقاليم المختلفة، من الصعب أن نتخيّل أنه قد زار إقليم الأفلاج،وهو دون استثناء أكثر أقاليم وسط الجزيرة العربية عظمةً، دون أن يلحظ المعلم الذي يميّزها عن البقية، والتي استمدّت اسمها منه، أي من نظام قنوات الريِّ العظيمة التي تستمدّ مياهها من مستودعات مائية عميقة إحداها في حجم بحيرة كانت شهرتها قد بلغت أوربا قبل فترة طويلة من رحلات بلجريف، وكانت قد قُدِّمت - رغم صورة المبالغة العظيمة التي قُدِّمت بها - في موقع صحيح إلى حدٍّ كبير بالنسبة لواحة الخرفة في خارطة ريتر عن الجزيرة العربية. بالطبع كان وضعها على تلك الخارطة نتيجة لتيقُّن مبني على معلومات أتت عن طريق وسيط. ولكن عجز بلجريف عن تأكيد وجودها دعّم شكوك الجغرافيين الأوربيين في وجودها، وكانت النتيجة أنّ البحيرة اختفت عن الخرائط التي لم تُعِدْها ثانيةً إلاّ بعد نصف قرنٍ أو يزيد.

لقد قدّمت هنا الأرضية التي استندت عليها في اقتناعي بضرورة رفض ادّعاء بلجريف بالسفر من الرياض للخرفة على أساس أنها محاولة طائشة للخداع. وباستثناء بيانه المجرّد عن الرحلة فإنَّ وصفه لها وللبلاد التي تقع فيها لا يحتوي على أي دليل على صِحّة زعمه، كما أن بها الكثير مما يدلُّ على نقيض ذلك. لا أستطيع أن أصدّق أنّ أياً من الناس الذين مرُّوا عبر ذلك الطريق يمكنه أن ينجح في أن يمحو محواً تامّاً عن ذاكرته كل الانطباعات التي تزاحمت أثناء تلك الأيّام القلائل. ولكن يمكنني أن ألخِّص اقتناعي في النقاط التالية:

١- تبعد الخرفة ١٧٠ ميلاً - في خط مباشر- عن الرياض، ولكنّ بلجريف يدّعي أن رحلته بين تلك النقطتين استغرقت يومين من الركوب العادي.

٢- لم يرَ في طريقه أيّاً من المعالم التي كانت موجودة حينها - كما هي موجودة الآن - لكنّه عوّض عن ذلك العجز بأن ابتدع قريتين - لا توجدان في الواقع - من خياله الخاص، أو أنّه أخذ أسماءها من خارطة كانت في حيازته.

٣- لم يرَ الواحات الكثيرة الأخرى بالأفلاج، ولا البحيرة والمستودعات المائية الأخرى، ولا قنوات الريِّ التي تشكِّلُ معلماً بارزاً في الإقليم.

٤- كانت كل المعلومات التي أوردها - تقريباً بلا استثناء - عن وجود طريق مباشر أو غير مباشر في تلك المنطقة، يربط بين الرياض والخرفة ومنطقة الأفلاج ووادي الدواسر، والبلاد التي تقع خلفها كانت جميعاً منافية للحقيقة.

يمكن أن نقرَّ بسهولة أنَّ ما أضافه بلجريف لمعلومات أوربا عن الإقليم الواقع جنوب الرياض من خلال وضعه لرحلته نحو الجنوب لا قيمة لها. ولكن سيكون

هناك الكثيرون، مثل السيد هوجارث ممن سيترددون في بلوغ مرحلة إدانته كمخادع حتى يحصلوا على دلائل واثباتات للمواقع التي غطاها حقيقةً أثناء رحلاته وليس التي ادّعى تغطيته لها. إذ أنَّهم سيتساءلون لماذا يلجأ من اشتهر برحلات مطوَّلة في أجزاء أخرى من البلاد التي لا يشك أحدٌ في أنَّه قد قام بها حقيقةً، لماذا يعرّض سمعته للوحل من أجل وصف عَرَضِي لجزء قليل وغير هام من رحلاته؟ هذا السؤال يثير مشكلة كبيرة كنت أفضِّل ألاَّ أخوض فيها، ولكني لا أرى مندوحةً عن فعل ذلك مخافة أن يقود امتناعي عن الإجابة لسؤال يبدو للوهلة الأولى منطقياً جداً لتداعي حجتي استناداً على القاعدة التي تنطبق مرتين على من لا يملك الدفاع عن نفسه. وحينها لابدَّ من افتراض البراءة من الجرم حتى نثبت الجريمة. إذن لنبدأ بالافتراض الذي يقول: مهما كانت الحجة ضدَّه دامغة فلا بُدَّ من قبول ادعاء بلجريف بزيارته للأفلاج إلاّ إذا أمكن إثبات أنه خدع قراءه فيما يختص بأجزاء أخرى من رحلاته أيضاً خلافاً لما هو مطروح الآن للبحث.

على الرغم من أنَّ «كل ما يأتي في الوسط في غالبه من وحي الخيال» فإنّ هوجارث يبقى وفياً لبلجريف: «لقد ذهب من موقع لآخر» ، ولم يهتز إيمانه به حتى إنه عجزَ «أن يعرف بداية أو نهاية» لوصف بلجريف للطريق بين بريدة والزلفي. إنه يقبل زيارته لتلك الأماكن بصفتها حقيقة واقعة، ويعلن بناء علٰى تجربته الذاتية «كان من السهل عليّ أن أقول إنّه لم يزر بريدة على الإطلاق قياساً على القول بأنه لم يزر الأفلاج» إن هوجارث يناقش الأمر في كتابه بتفصيل أكبر[1]، يقول: «إنّ أي تفسير لأخطاء بلجريف بخلاف أنه كثير المبالغة ويغفل

(١) D.G.H (كتاب هوجارث)، ص ٢٤٩. (المؤلف).

بعض الحقائق ويعطي بيانات خاطئة، أيُّ تفسيرٍ يتجاوز هذا الإطار يكون بعيداً عن الحقيقة، وهو أمر لجأ إليه كبار منتقديه. لقد قام بلجريف بلا شك بالرحلة التي وصفها. ولم يعبّر أيٌّ من الذين خلفوه في نجد عن شكوك في موثوقية زيارة بلجريف لها، وشهد أكثر من واحد أنّ مدوّناته في بعض النقاط كانت من الدِّقَّة بحيث لا يستطيع سوى من شاهد بعينيه أن يُسطِّرَها، وآخر هؤلاء هو البارون نولده الذي لا يذكر الافتراء إلاَّ ليدحضه، واصفاً إيّاه.

ولقد أرسل لي مكتشف ذو خبرة عظيمة وهو س.م. داوتي خطاباً ضمّنه رأيه في أنه لا يشك في الرجل، وأنّه قد فهم بعض التعليق الذي قيل له في حائل على أنّه قد يُعنى به بلجريف. واصفاً هذه النقطة قائلاً: «قال لي الخنيني في عنيزة شيئاً كهذا (كيف تستطيع أن تتجوّل في بلاد ليس بها قانون معلناً إنك إنجليزي ونصراني؟ لقد كان هناك رجل -لا أذكر اسمه- امتنع عن الإعلان عن نفسه هكذا عندما مرَّ بالبلاد).

وأخيراً يكتب ويلفرد بلنت: (لا أشكُّ أنّ بلجريف قام بالرحلة التي سردها في كتابه. ويمكنني أن أشهد أنّ وصفه للحياة الاجتماعية في نجد صورة أمينة لما شاهدته أنا). وما ينبغي إضافته أنّ التوافق بين وصف بلجريف لمجتمع الواحات النجديّة ووصف داوتي لها جدّ قريب، فَلْتَزُلْ إذن كلُّ الشكوك».

أنقل هذه القطعة بكاملها لأظهر وزن الخبرات التي تقف أمامي. ولكن هناك بعض الملاحظات فيما قالوه لابد من التعرّض لها ابتداء. لا بدّ أن نذكر في البداية أنّ الحدود الشمالية لرحلاتي الشخصيّة كانت قصيباء بالقصيم، ولذلك لستُ مهتماً بسرد بلجريف بالجزء الخاص بتجواله في المناطق الواقعة شمال تلك النقطة. هذه

الحقيقة تجعل صفَّ الشهود الذين أتى بهم السيد هوجارث أقلّ جلالاً ممّا كان يمكن أن يكون عليه، إذ من بينهم من لم يتخط حـائلاً جنوباً وأحدهم بلنت، أمّا مولده الذي «كانت قـدرته ورغبته في مـلاحظة ما يرغب فيه الجـغرافيون مـحدودةً»[١].

فلقـد تطابق سيـره مع سيـر بلجريف في هذه الأنحـاء فقط في الجـزء الواقع بين قصيباء وبريدة، بينما لامس داوتي الخط الذي سلكه بلجريف فقط في بريدة.

وما تبقى دون تفسير هي الإشارة لبـالجريف التي استوحاها داوتي من محادثة من التقى بهم في حـائل وعنيزة. وإذا نظرنا للمحـادثة التي أشير إليهـا أعلاه، لا يمكن أن يكون «الخنيني» هذا قد أشار لبالجريف الذي لم يزر عنيزة قط، ليس ذلك فحسب بل هو يعلن صراحـة -دون مباهاة- أنه ورفيقه سافرا مـتخفيين في صورة سوريين نصرانيين[٢]. ولكن جوارماني الـذي زار عنيزة في مارس (آذار) ١٨٦٤م وكان يتّخذ صفة مسلم، ويبدو أنّه تمتّع بتأييد زامل وآخرين من وجهاء المدينة. أمّا الإشارتان[٣] الأخريان لمكتشـفين سابقين فلقد كان اسم الأول عبـدالله، بينما كان الاسم الذي اتخذه بلجـريف لنفسه كمـا يقول لنا هو[٤]: سليم عبده -مـحمود-

---

(١) كتاب هوجارث .D.G.H ص ٢٥٥. (المؤلف).

(٢) راجع كتـاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ، ص٥٦٢ عندمـا لخص ملاحظاته حـول مسألة التـخفي قائلاً: « يمكن لمسيحـيٍّ إنجليزي أن يعبر الجزيرة العربية ونجـد نفسها دون أن يضطر لتغيـير ديانته أو شرف انتمـائه لوطنه». وراجع أيضاً الجـزء الأول ص ٢٦٦ حيث يقـول: «أشارت الخطة إلى نفس مـا اتبعناه، وهي بكل تأكيـد خير تخطيط» وكـذلك الجزء الأول ص ٢٦٧: «حدث مـرّةً، مرّةً واحدةً فـقط أن صار وصفنا كمسيحيين سبباً لاتهام ومصدراً لخطر حقيقي». راجع أيضاً الجزء الثاني ص١١٩: «عبدالله: (أنتم عمـلاء مسيـحيون). بلجـريف: (مسيحـيون، ليكن الأمـر كذلك، ولكن عمـلاء. . . . وكأننا لم نكن معروفين كأطباء مسالمين)». (المؤلف).

(٣) كتاب داوتي C.M.D الجزء الأول ص ٥٩٨، وص ٦٠٤. (المؤلف).

(٤) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ص ١٥٢. (المؤلف).

العيسى»، أمّا الآخر فقد يكون هو بالجريف أو قد لا يكون. وإن كانت الإشارة له فلقد كانت بعيدة عن الإطراء: «رجل صدوق والله» صاح ذلك الشيخ المسنُّ -وهو يشير بالطبع إلى داوتي-، ثم واصل حديثه: «هذا لا يشبه ذلك الذي أتى إلى هنا في السابق، رغم أنني لا أتذكر في أيّ عام يا محمد، لكنَّ الأول كان يقول لنا كل شيء بصراحة ووضوح».

لهذا، وطالما أن المنطقة جنوب حائل هي التي في المحك، فإنَّ وزن الشهادة التي جاءت لتعضّد ادعاء بلجريف الذي لا تسنده الأسانيد، هي ليست شهادةً داحضةً للتهم. ولكن قد يحتج البعض بأن بلجريف إذا كان قد زار في حقيقة الأمر الجوف وحائل ووصف المجتمعات في تلك المواقع بقدرٍ من الدقّة رغم المبالغات والبيانات الكاذبة، فليس هناك سبب يجعلنا نعترض على تصريحاته بأنه قد ذهب إلى الجنوب من ذلك -للقصيم والرياض والأحساء والأفلاج- رغم أننا قد نجد أخطاءً خطيرة في وصفه لهذه الأماكن. ولكن هذه الحجة ليست خالية من النواقص. لقد كانت ظروف زيارة بلجريف للجزيرة العربية مُغَلَّفةَ بالغموض، ووفقاً لما استطعت التحقّق منه -بعيداً عن سرده- ليس هناك إثبات مباشر للموثوقية في أي جزء من أجزاء رحلته أو حتى حادث تحطّم السفينة المؤسف الذي سلبه مذكراته بعد فراغه من كتابتها وتركه معتمداً بالكامل على ذاكرته عندما شرع بعد عامين في الكتابة عن تجاربه. بيد أنّ السيد هوجارث أوضح النقاط الأساسية الخاصة بالغرض من رحلات بلجريف[1]. بعد محاولة نابليون غير الناجحة لمواصلة الاحتلال العسكري الفرنسي لسوريا نتيجة لمذبحة لبنان عام ١٨٦٠م،

(١) كتاب هوجارث D.G.H ص ٢٤٥. (المؤلف).

«كان يأمل أن يحقق احتلالاً فرنسياً فاعلاً على سوريا، أو أن يضمن تبعيتها لوكيله: النائب على مصر. كما كان مهتماً بخلافات مصر مع القوة العثمانية المتسلطة». «وبحلول عام ١٨٦٢م كان تأكيد إنشاء قناة السويس يزيد كثيراً اهتمامات فرنسا ومصر في الجزيرة العربية». واستدعى نابليون بلجريف لباريس صبيحة المذابح الدمشقية، وقدّم بلجريف نفسه للإمبراطور بصفة سفير محتمل للمجتمعات العربية. وبعدها اعترف بلجريف نفسه شاكراً «إنّ المواد اللازمة قد وفّرها الإمبراطور الفرنسي الحالي» ولخّص هوجارث الموقف في ثلاث جُمل «هناك احتمال أنّ مهمتهم كانت دينية فقط وترتبط بمصالح الكلية اليسوعية في الشرق التي كانت مرتبطة في ذلك الوقت مع المصالح السياسية لفرنسا. والاحتمال الأكبر أنّ مهمته الأساسية كانت تحقيق بعض الخطط السياسية. ومن المهم أن نوضّح أنّ هذا المكتشف لم يذهب للجزيرة العربية من أجل غايات علمية، لكنه ذهب لغرض آخر كان لا بدّ أن يجعله متحيّزاً بقدرٍ ما».

يتضح من كل هذا أنه ليس هناك من شك في أنّ بلجريف قد توغّل في صحراء الجزيرة العربية، وأنّه قد فعل ذلك ليضمن تعاطف ذلك القطر مع الإمبراطور الفرنسي فيما يختص بخططه حول منطقة سوريا وقناة السويس. إنّ مهمةً كهذه لا تستوجب بالطبع تجوالاً كثيراً يخترق فيه البلاد السعودية حتى الخليج العربي. بينما كانت الغاية الأساسية لرحلته - فيما صرَّح به - هو العاصمة السعودية والأرض التي تقع خلفها. ويؤيد هذا سجلٌ حافل لمغامراته هناك مما يفيد في صرف انتباه الرأي العام عن حقيقة نشاطاته السياسية التي لا بدّ أن مركزها كان جبل شمّر وعاصمتها. والمثير للاهتمام أن سلفه وليام وخليفته جوارماني، وكلاهما قَدِمَ فيما يبدو إلى الجزيرة العربية لأسباب مشابهة؛ أولهما إنابة عن

النائب في مصر، والثـاني إنابة عن الإمبراطور الفرنسي نفسه، لم يجـد أيّ منهما ما يستدعي التجـوال بعيداً إلى الجنوب من جبل شمّر، رغم أنَّ كليهمـا تجوّلا كثيراً جداً داخل الحدود التي رسماها لنشاطهما.

لن ينكر أحـدٌ أنّ بلجريف كـان بإمكانه أن يحقـق أهدافه السـياسـيّة دون أن يضطر للخـروج عن بلاد ابن رشيـد. وتقود الدلائل التي تُسـتخلص من كـتاباته للاقتناع بأنه كـان شاهد عيان للمـشاهد التي وصفهـا في شمال نجد، بينمـا تشير كـتاباته عن رحـلاته في وسط وجنوب نجـد، وتقود القـارئ للشك في أن تكون تسجـيلاً لشاهد عيـان. لذا يبدو أن هناك سببـاً معقـولاً للتشكيك على الأقل في مـوثوقيـة الوصف لذلك الجزء من رحلـته الذي لم يكن لازمـاً لتحـقيق أهدافـه السياسية. سأقوم الآن بفحص تفصيلي - كلما دعا الحال - لما كتبه عن تجاربه في الأراضي السعودية منذ اللحظة التي دخلها عبر الواحة الحدودية الشمالية لقصيباء، وحتى الوقت الذي أبحر فيـه من ساحل الأحساء. ولتسهيل الأمـر سأتتبع مراحل رحلته.

اقترب الرجل من حدود القصيم آتياً من الشمال، وافتتح حديثه بإعطاء القارئ محـاضرة حول انحـدار سطح شبه الجـزيرة. «نجحت سنوات السـفر الطويلة في النهاية في تمكين النظر. وبالطبع كل الحواس الأخرى من قياس الأطوال والمسافات والاتجاهـات، وقياس الـتفاوت فـي الارتفاعات بـدقّة مقـبولة، حـتى في غـياب الأدوات التي أنتجـها العلم الحديـث لتساعد وتـصحح حسـاباتنا التقريبـية. هذه الأدوات بلا شك عظيـمة الأهمـية كلمـا دعت الحـاجة لدقـة متناهيـة وتفاصـيل لقياسات رياضـية». ولكنه يطمئننا رغم ذلك أن بياناته «يمكن الاعتـماد عليها دون خوف كأساس، كونها خطوة أولى لتأكيد صِحة وإصلاح خارطة الجزيرة العربية».

ثم يقرر أنّ الخط الفاصل أو المرتفعات الرئيسة في الجزيرة العربية تمتدُّ من شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، بين خطوط طول ٤٥ْ و٤٦ْ شرق جرينتش، وبين خطوط عرض ٢٩ْ و ٢٤ْ شمالاً، «وعلى جانبي هذا المرتفع، وأيضاً إلى الجنوب تنحدر أراضي الجزيرة العربية إلى أسفل نحو الخليج الفارسي، والبحر الأحمر والمحيط الهندي». إنني أورد هذه النصوص حتى أدلّل على نحو حاسم أنّ منظور بلجريف للجغرافيا الطبيعية لوسط الجزيرة العربية لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة، وأنها غير مفهومة على الإطلاق، رغم أنها تأتي من رجل يدّعي أنه رأى جزءاً كبيراً من البلاد.

يقوم بوصف المكان بعد أن غادر فيد «بعيداً هناك في اتجاه الشرق كانت تبدو قليل من القمم الزرقاء الباهتة، إنها فروع جبل طويق في طرفه القصى». وبعد ذاك بقليل يصل إلى قصيباء، وهي واحة تمتدّ في خط طويل دقيق من النخيل في قاعٍ أرضه مالحة، في أسفل صخرة راسية من الهضبة الجيرية. ويقول: «التل الصغير الذي بُنيت المنازل أعلى جانبه الشرقي هو في أجزاء أخرى مغطّى بكثافة بأشجار الأثل والنخيل معطياً صورة رائعة».

خلال المرحلتين اللاحقتين لرحلته لم أتتبع خطاه، إذ أن الطريق الذي سلكته أنا من بريدة حتى قصيباء جعل واحات القوارة والعيون بعيدتين عن مرمى البصر من خلف سلسلة التلال الواقعة ناحية الغرب. وجد بلجريف في واحة القوارة «عدداً لا يحصى من كلاب [1] القرية هائلة الحجم.. لقد كانت بلا شك أكثر طيشاً وإزعاجاً من أيّ كلاب أخرى رماني الحظ العاثر في حِماها». ثم سُلِبَ قلة

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الأول ص ٢٣٨. (المؤلف).

مليئـة بأجود أنواع تمر حائل، وهو الذي اتّخذ القلة وسـادةً له زيادة في الحرص. وفور أن غادر هذه البقعة[1]، «بلغنا فجأة انحداراً في سطح الأرض، ولاحت لنا الأطراف الجنوبية للقـصيم.. وترامى أمامنا حتى بلغ حـدَّ الأفق مترامي الأطراف تتناثر فـيه المدائن والقـرى والأبراج والحدائق.. ويبلغ عـرض هذا الإقليم المأهول بالسكان نحـواً من ستين مـيلاً، وطوله ضـعف ذلك أو أكثـر، ويقع الإقليم على مستوى يقلّ بمئتي قـدم عن مستوى المرتفعات التي تنتهي هنا فجأة بصـفتها حوائط لتتـرك الأراضي المنخفـضة لتـمتدّ دون عـائق لمسافـات بعيدة حـتى سلسلة طويق المتعـارضة التي تحـدَّها من الجنوب، وتفصلهـا عن الطريق العام الـذي يربط نجداً بمكَّة.. وعلى بعدٍ يبلغ بعض الأميـال رأينا بساتين النخيل الكثيفـة للعيون، ولاح لنا نزر يسير من أبراجها وقلاعها التي تسمح الزراعة الكثيفة برؤيتها. وبعيداً هناك عن يميننا -أي إلى الغـرب من رقعة كـبيرة داكنة- لاحت مـدينة الرس، أمّا بقـية القرى والقرى الصغـيرة فلقد تناثرت بكثافة في الأنحاء حولها». هـل هذه حقيقةً شهادة شاهد عيان لذلك المشهد المهجـور قفار لا حدود لها ولا يكسر رتابتها شيء سوى واحة اسـتيطانية واحدة؟ هل كان هذا هو كل مـا استطاع رؤيته من هنا، أو من أيّ ناحية أخرى في الجوار - قرية العيون؟[2].

قد يكون السبب أن ذاكرته خـانته، لكنني بقيت نادماً طوال الوقت، لأنه نظراً لنشاطات ابن رشيد لم يكن من الممكن إقناع مرافقيَّ لنتحول عن مسارنا حتى أرى العيون. لأنني كنت أود أن أخـتبر صدق بلجريف بطريقـة لا تدع مجالاً للشك. وما رآه في العيون لم يكن تخيلاً وبيوتاً فـحسب، «ولكن شمخ بين أيدينا مباشرة

(١) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ص ٢٣٨ ، ٢٣٩، ٢٥٠. (المؤلف).

(٢) لم أر أنا نفسي هذه الواحة. (المؤلف).

معلم بارز رائع، يجذب الانتباه والنظر، لم يكن بوسعنا أن نحيد التفاتاً عنه، حتى بالنسبة لرفاقنا من العرب أيضاً».

لم يزر الموقع من الأوربيين بعد بلجريف فيما أظن سوى ليتشمان[1] ولكنه لم يرَ ذلك المعْلَم البارز ولكن السكوت المحض ليس حجة مقنعة لعدم وجوده. لذا نرجئ في الوقت الراهن الحكم على هذه النقطة.

ويقول بلجريف عن هذا الأثر: «رأينا أمامنا عدداً من الحجارة الضخمة التي تشبه الحجارة الجلمودية العظيمة، وضعت منتصبةً عموديّة على التربة، بينما وضعت بعض الكتل المشابهة بالعرض على قمتها. لقد كان ترتيبها في شكل قوس، ولعلها تشكّل جزءاً مما كان يوماً دائرة عظيمة، بينما وقعت حجارةٌ شبيهة كثيرة على الأرض غير بعيد. كان عدد الكتل التي ما زالت منتصبة - إن شحذنا الذاكرة - ثمانية أو تسعة، وكان اثنان منها على بعد عشرة أو اثني عشر قدماً عن بعضهما البعض، وتشكّلان أعمدة ضخمة لمدخل، وكانت تحمل حتى الآن عتبة الباب وهي كتلة طويلة وضعت بالعرض فوقهما. وكان القليل من هذه الأعمدة مجرّداً من الكتل العرضية العلوية، أما البقية فقد أسندت فوقها تلك الأعمدة العرضية تحسباً لعاديات الزمن ولأفعال الإنسان التي تفوق في التدمير مقدرة العوامل الطبيعية. لقد بدت مجموعة من هذه الأعمدة العرضية مُتزنةً بصورة بديعة حتى ظننت أنّها قد تكون صخرة هزازة، وقدت مطيتي لأقف أسفلها تماماً، ثم أشرعت عصا القيادة بأن مددت ذراعي إلى أقصى درجاتها، واستطعت تقريباً أن

(١) لقد نما إلى علمي بعدها أنّ هوبر وهو مكتشف ذو قدرات خارقة وله ملكة في الملاحظة الدقيقة الحريصة قد زار هذه الواحة ولم يرَ الظاهرة العجيبة التي أشرنا لها هنا. وسكوته في نظري هو دليل مقنع بأنها غيرموجودة. (المؤلف).

ألامسها وأن أدفعها ولكنها لم تهتز. وبتقدير ارتفاع الناقة والراكب والعصا فإنّ الصخرة تكون على ارتفاع خمسة عشر قدماً فوق سطح الأرض». أقرّ رفاقي بجهلهم التام بوجود هذه المعالم الحجرية، ولكنّ اعترافهم هذا لا يخدم القضيّة أكثر مما خدمها سكوت ليتشمان عنها.

كلاهما يثير الشكوك التي لا يمكن بما نعرفه الآن عن المنطقة التأكّد من صحتها ولكن لا بد من الإقرار بأن التصريح بوجودها لا يمكن أن يُعزى بأي حال من الأحوال لخيانة ذاكرة خربة، وأنّه إن تأكد أنّها غير موجودة، فإن الاحتمالات هي أن بلجريف لم يرَ عيوناً قط. ولكن من الجانب الآخر إذا تأكد وجودها يكون هناك كلّ الأسباب التي تدعونا لأن نصدِّق أنّه قد زار بالفعل الموقع واحتمال أن يكون قد زار بريدة أيضاً. وإذا اعترفنا بهذا واتفقنا عليه رغماً عن وصفه الخيالي الجامح للمشهد الذي يبدو أمامه فلا بدّ لنا أن نهمل الدليل الداخلي الذي استقيناه من المغالاة في وصفه للأراضي السعودية كاختبار لصدقه العام. لذلك هناك الكثير مما يتعلق حول التساؤل عن وجود حجارة العيون الضخمة أو عدم وجودها. وهذا السؤال لا بدّ أن يبقى مُعَلّقاً في الوقت الراهن.

تمّت استضافته في العيون لتناول طعام العشاء. ثمَّ يُقدّم لقرائه محاضرة على نحو مشتت عن نباتات الجزيرة العربية، وعن المصاعب التي قد تنجم عن التخفّي بطريقة غير ملائمة في أرض المسلمين. معرفته بالنباتات غير مصقولة، ولكن ليس من المهم تعقُّبه تفصيلاً في هذا الجانب. يكفي أن نقول إنّ تقديره لأبعد أعماق الآبار في القصيم بستة أقدام لا تسنده الحقيقة، ولا ادّعاءه أن تمور هذا الإقليم تُصدَّر إلى اليمن والحجاز. والمرحلة التالية في هذه الرحلة هي واحة الغاط الوهمية

التي استغرقتـه - رغم ذلك - بساتينها وحقولها ساعةً لاجتـيازها. وأخيراً بعد أن رأى بريدة على بعد فرسخ من هناك، يتوقف ليقضي المساء في الدويرة، وهي من ابتداع خياله أيضاً.

وفي النهاية بلغ بريدة في ١٧ سبتمـبر (أيلول) ١٨٦٢م وقضى بها أسبوعين، ولكن تعليقاته حول الأشياء عموماً كانت استطراديّة حيث ركّز على خيام وهوادج قافلة هندية - فارسية التي تصادف وصولها إلى المدينة ونـصبت خيامها قبل بضعة أيام. ثم قام باستعراض ثري للمعرفة العظيمة التي يملكها عن تفاصيل حياة العرب الحضـرية بالمدن. ألم يَعِشْ فتـرة طويلة بدمشق[1] ؟ إنه يعرّض نفـسه لقليل من الانتقاد فـي وصفه لإقامتـه هناك، وحينها يكون الانتـقاد لبعض التفاصـيل فقط. وكتب عن المآذن والمعـالم الأخرى التي تميّز بين السلفـيين وغيرهم. يمكنه بسـهولة الحديث عن مـعلومات بلغـته عن طريق وسـيط دون خطورة، لكنه يعرّض نفـسه للخطر عندما يقـول: «أحياناً يكون هناك خطٌّ طويل من هذه الحـيوانات (الإبل)، يُربط حبل الرأس لكل بعير بمذيلة (سيـر جلدي تحت الذيل) الحيوان الذي يسبقه، وهو أمرٌ غير مريح في الانحناءات الحادّة».

إنَّ عادة ربط حيوانات القافلة بهذه الطريقة منتشرة في الهند ولكنها بالقطع لا توجد في صحاري الجـزيرة العربية، وكانت المناسبة الوحيـدة التي رأيت فيها هذا المشهد إبّان إقامتي في الجزيرة العربية، كان في طريق الطائف - مكة بالحجاز. هنا يجد بلجريف الصخور المالحة «ذات نقاء وبياض عظيمين»، بينما أنَّ إنتاج أحواض الملح بالقـصيم لها دائمـاً لون وردي متسخ. ويـرتقي التلال الرملية التـي يكسوها

(١) لا بد أنه تعرّف هناك على عدد لا يحصى من أهل بريدة وعنيزة. (المؤلف).

الأثل في أطراف المدينة ويرى عندما ينظر ناحيـة الجنوب الغربي «كل المنطقة تتناثر فيها جُزرٌ من الزرع بين الرمال، ورأى على البعد ظلالاً أكثر كثافة تشير إلى موقع عنيزة نفسها». في حقيقة الأمـر يرى الإنسان قفاراً لا حدود لها من التلال الرملية العالية التي تتقلص حجماً كلما بعدنا عن المدينة. لكنها تمنع تماماً كلّ إمكانية لرؤية عنيزة. ولا بدّ أن الجيش السـعودي قد تدهور الآن مقارنةً بالوقت الذي يصـفه فيه بلجريف، حين كان على مستوى عـالٍ من الفعالية إذ لا حظ أنَّ بنادقهم قد رتبت في شكل هرمي قريب الشبه بطريقتنا في حفظ الأسلحة».

وتتكاثر هفوات شبـيهة بهذه بحيث لا تُـحصى، لكنه يصبح أكثر عـرضةً لها عندما ينتهز فرصة إقامـته الممتدة ليقوم برحلات[1] يومية للمنطقة المحيطة بالمدينة. «من أجل دراسة الحياة الريفية بالقصـيم». هذه الرحلات لها النكهة المميزة لزيارته للأفلاج. كان هدفه في الحالتين اللتين ذكـرهما قريتي أصخا والمذنب. أمّا الأولى إمّا أنّها غير موجودة، أو أنه يعني بها مصقع، وهي على بعد مسيرة أيام من بداية رحلته، بينما المذنب -إضافةً لأنّها كانت تبـعد كثيراً بحيث لا يمكن أن تكون هدفاً لرحلة عادية ليوم واحد- فإنـها تقع في الخط المباشر للطريق الذي يصل بين بريدة وشقراء، والذي أخبرنا بلجريف أنّه لم يسلكه عندما عاود مسيره نحو الجنوب. ثم يقول «يجـري طريقان الأقصـر أمامنا[2]، وهو مطروق أكثر ويـقود نحو الجنوب الشرقي والـشرق عبـر إقليم الوشم وعاصـمته شـقراء، ثم عـبر وادي حنيـفة[3]

---

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الأول ص ٣١٤. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الأول ص ٣٢٤. (المؤلف).

(٣) من المهم أن نلاحظ أن بلجريف يتـحدث بانتظام عن وادي حنيفة وكأنه يجـري من الجنوب للشمال، في حين أنه - بالطبع - يجـري في الاتجاه المعاكس. وهذا خطأ لا يُغـتفر لمـن كان شاهد عـيان للوادي بين العيينة والرياض. (المؤلف).

للرياض. ولكن هذا الطريق كان يمرُّ عبر إقليم يزوره كثيراً في الوقت الراهن جنود عنيزة وحلفاؤهم، ولذلك لم يتحمّس رفاقي - ولم يكونوا فائقي الشجاعة- فأبَوْا أن يسلكوه: في هذه النقطة يقترب الرجل كثيراً من إطلاق كذبة مباشرة إذ أنه قبل أيام قلائل قد عبر مرتين بداية ذلك الطريق، وهو بلا شك أكثر خطورة، ولم يكن هناك سببٌ للتخوّف منه في هذه المناسبة. ولكن الواضح أنّه لا يدري أن المذنب تقع على ذات الطريق. وإن كان الرجل قادراً على اختلاق رحلة لذلك الموقع فليس هناك سبب واضح يمنعه من أن يكون قد اختلق مغامرات أخرى بما في ذلك رحلته للأفلاج.

لا أود أن أطيل في التعليق عن رحلته بين بريدة والزلفي. لقد اعترف السيد هوجارث أنه لم يعرف لوصفه أولاً ولا آخراً. ورغم هذا فإنّ بلجريف في وصفه لهذه الرحلة كتب بتفصيل يفوق كثيراً وصفه لرحلة الأفلاج. إنه يعطي وصفاً تقريبياً لمساراته وتوقفه بينما أن الأمر استغرقه حوالي ثلاثين ساعة سير ليقطع مسافة ستين ميلاً، وهي سرعة تتوارى خجلاً أمام إنجازه في رحلته للخرفة: ١٧٠ ميلاً في يومين من البداية للنهاية مع التوقف للمبيت. وكانت وقفاته أيضاً في واحات وهمية: الرويضة وواسط، وليس مستغرباً أنّ وصفه أربك السيد هوجارث واستعصى عليه أن يطابقه مع المعلومات التي حصل عليها من مصادر أخرى.

رغم هذا فإن بلجريف من الحمق بحيث يحذِّر القارئ من المآزق التي قد يقع فيها الإنسان حيث لم يكن حذراً عند محاولات استقاء معلومات جغرافية من العرب. استمع لقوله: « دعني أبدي رأياً هنا[1]، إنّ الأوربيين الذين يزورون أو

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الأول، ص ٣٣٧. (المؤلف).

يصفون الشرق ينبغي عليهم اتخاذ الحيطة والحذر من أخذ المعنى الحرفي للجمل والعبارات الضبابية التي يستخدمها معظم العرب، ولكن على وجه الخصوص المصريون والسوريون عند حديثهم مع الغرباء ويسبب استخدام المترادفات والألفاظ المتجانسة أيضاً كثيراً من الأخطاء للباحثين الأجانب. ولا يستقيم الأمر إلاّ باستجواب عدد من الأفراد في أوقات متباينة وأماكن مختلفة، ثمَّ مقارنة هذه المعلومات بتمهّل مع بعضها البعض، واستخلاص ما يشبه الحقيقة منها. وإن كان الأمر حول مواضيع هامة فمن الخير أن يستخدم الشخص نظره وأذنيه في موقع الحدث وإبداء الاعتراضات والتساؤلات في حينها إن أمكن. ولن تجد نجدياً -كبيراً أو صغيراً - حريصاً على أن يعطي أوربياً معلومات دقيقة عن موطنه».

لا أستطيع أن أنتقد وصف بلجريف - بثقة شاهد العيان - للمنطقة بين الزلفي وسدوس على جانب مجرى وادي حنيفة، فأنا لم أرَ المكان. ولكن هناك بعض النقاط التي تدعو الإنسان للتأمل. فتقديره لارتفاع هضبة طويق بألف إلى ألفيْ قدم «فوق سطح شبه الجزيرة المحيطة بها» هو تقدير خاطئ، ولكنه أقل مبالغةً من قوله أن تجمع أمطار طويق «يقع على الجانب الشرقي وليس الجانب الغربي». هذا مفهوم من نسج خياله ولكنه يطوّره بإضفاء تفاصيل عليه. «إنّ الحافة الخارجية لطويق حادّة طوال الوقت، وتتخذ شكل شفرة يبلغ ارتفاعها خمس مئة أو ست مئة قدم من الصخور الجيرية، ترتفع من السهل الملامس للهضبة، ويتلو ذلك نجدٌ تختلف مساحاته ولكنه مُسطح. ثمَّ تأتي درجة أخرى ارتفاعها ثلاث مئة أو أربع مئة قدم، يتلوها نجدٌ ثان أكثر ارتفاعاً، ومن وقت لآخر، هضبة ثالثة تعلو فوق الثانية». ويتوج صورته الكاريكاتورية لمعالم هضبة طويق بأن يسخر من «الجغرافيين

الذين يتكرّمون بتزويد الجزيرة العربية، خاصة في جانبها الشرقي بأنهار تجري من الدرعية أو من مكان آخر.. للبحر... إنّنا سنتتبع وادي عفتان الذي يظهر دائماً في الخرائط كنهر» سنتتبعه بعد قليل على امتداده وسنعرف عندها حقيقته[1].

ولكن لا ينبغي علينا أن نكترث لسخرية نابعة ممن يجعل وادي حنيفة يجري في الاتجاه المعاكس، ويقوم بالإنجاز المدهش بمتابعة وادي عفتان الوهمي على امتداد طوله. إنه لغنيٌّ عن القول أنّ وادي عفتان هذا لا وجود له على أرض الواقع.

لقد وجد الآبار في الغاط وافرة المياه، حتى في ذلك الوقت، أكثر أوقات العام جفافاً، وكان الفائض منها كافياً لملء مستودع كبير تجري من كل جوانبه الجداول...» وعند ارتقائه الممر وجد نفسه في ظلال أشجار حرجيّة وقد أدهشه أن يرى بينها شجر الدُّلْب (الصِنَار)، وأضاف أيضاً أنّ «الأفاعي في نجد لا تقلّ ندرة عن إيرلندا أو مالطا». وبهذه المناسبة سخر من رواية عاطفية[2] كتبها م. لامارتين الذي اكتشف بطل روايته أيكة ممتلئة بالجلود التي انسلخت منها الأفاعي.. نوع من مستودعات الإيداع لجلود الأفاعي.. كما أعتقد». كم هم سعداء الجوّالة الذين يملكون خيالات غنية وخَلاَّقة!.

وفي نهاية الأمر يبلغ سدوس التي تبعد ميلاً واحداً تقريباً من حافة وادي حنيفة الذي يجري هنا دون مقاطعة في اتجاه جنوبي شرقي بطريق العيينة والجبيلة والملقى إلى الدرعية: ومن ثمّ للرياض نفسها. ولكن الوصول إلى حافة الوادي -الذي وجده يجري أمامه في اتجاه الجنوب الغربي- استغرق منه الجزء الأكبر من

---

(١) كتاب بلجريف ، W.G.P. الجزء الأول ص ٣٣٩. (المؤلف).

(٢) رحلة فتح الله الصايغ الحلبي.

مسيرة يوم طويل. وكان وصفه للرحلة يجعلنا تائهين بين الرأس والذنب بحثاً عن الحقيقة التي لم تكن مضمّنةً في وصفه. إنّ ذكره للعيينة والملقى والدرعيّة قد يخفّف من غلواء انتقادنا له رغم أنه أخطأ حين ذكر أن العيينة والدرعية تقعان في فرعين مختلفين للوادي. لكنه يعود فيستوجب النقد ثانية عندما يطلق اسم الجبيلة، وهو موقع لانتصار إسلامي قديم على الروضة.

كانت قمة مغامراته في الرياض التي بلغها يوم ١٣ أكتوبر (تشرين الأول)، وغادرها يوم ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٢م، بعد أن أقام بها اثنين وأربعين يوماً لقد رأى أهمية أن يصطحب معه قراءه لأسرارالحياة الخاصة، فيقول: «قبل أن أشرع في وصف تفاصيل الأيام الخمسين التي تلت في هذه المدينة الغريبة لا بدّ أن أعتمد كثيراً على مخزون الثقة والتصديق التي أثق في أنّ قرائي يدلونني إيّاها تفضلاً بوصفي رجلاً إنجليزياً رغم أنني جوّال. إنّ هدفي هو أن أعطي فكرة كاملة وفي الوقت نفسه صادقة عن الأرض والحكم.. إلخ». في حقيقة الأمر إنّ موضوعه: قصة المغامرات الغريبة والممتعة والخطرة في البلاط السعودي لا يتعرض وصفه لها لانتقاد وتشريح دقيق مثل ما تعرّضت له المراحل السابقة من رحلته التي أوصلته إلى العاصمة. إنّه ماهر كما أسلفت في معالجة قضايا حياة العرب المدنيّة. والحياة في الرياض -رغم أنّها أكثر التزاماً- لكنها لا تختلف كثيراً عن الحياة في بريدة أو حائل. أمّا بالنسبة لتجاربه فهي يمكن أن تحدث لو أنّه أقام فعلاً في الرياض، بيد أنها لم تكن لتخذله إن كان قد كتبها من الخيال دون أن يزور الرياض. إنّه يزلّ ويخطئ كثيراً -كما نتوقع- في أمور التفاصيل، ولكنّ الأمر سيكون مملاً إن تتبعنا وصفه لتجاربه في الرياض بالتفاصيل الدقيقة التي اتُّبعت فيما

عداها. ويمكننا أن نتساءل عن الإنصاف في تعريضه[1] بالمبادئ الأخلاقية السلفية، كما يمكننا أن نصرف إفادته التي تقول بوجود الخنزير والخنزير البرّي بكثرة في جبل طويق بأنها هُراء، ونرتاب أيضاً في إفادتـه بأنه قد سمع في الرياض للمرة الأولى أو قد وجـد آثاراً للحمـيريين، وقد نشـكك أيضاً في أنه كانت لـه الحرية - وهو مسيحي - في الدخول للمساجد السلفية كما يريدنا أن نصدّق.

وردت أطروحة مطوّلة متخصصـة عن الأمراض الموجودة في الجزيرة العربية، وذلك في خضمّ وصفِه للحياة بالريـاض، لتذكرنا أن بلجريف كان في المقام الأول طبيباً، وأنّه في خضمّ مشاغله الأخرى، أو بالرغم عن هذه المشاغل قد أفسحَ وقتاً كافيـاً لممارسة مهنتـه حتى يتمكّن من الحصـول على معرفة شـاملة لا بدّ للجزيرة العربية أن تعلّمهـا للطبيب. وليست لديّ المعرفة المتخصـصة التي تمكنني من انتقاد قائمته الطويلة التي تضمّنت حوالي خمسين مـرضاً أساسياً مرّت عليه أثناء ممارسته للطب بحائل والرياض لفترة شهرين ونصف. لعلّه من العدل أن نفترض أنه عندما قام بتدوين كتاباته من الذاكرة ما كان قد نَسِيَ تماماً الحالات المرضية البدوية التي لا بُدَّ أنه قد عـالجها في دمشق. ولكن يبـدو أنّ ذاكرته عن الحالات التي قـابلته في وسط الجزيرة العربيَّـة نفسها قد خـذلته، على الأقل في حالة واحدة، فـهو يقول «هناك مرض لا حـاجة بي لذكر اسـمه»، ويحمـرُّ وجهه خـجلاً وهو يكتب هذه الكلمات، «وهو منتشر بصورة مخيفة، ومثل بقية الأمم فإنّ العرب ينسبونه لمصدرٍ خارجي» يمكـنني أن أغامر فـأؤكد أنَّ الأمـراض التناسلية نادرة للحـدّ البعـيد في

(١) مثلاً في الجزء الثاني من كتابه، يقول ص ٢٤: «التهتك والخلاعة بجميع أنواعها حتى اللغة التي لا يمكن أن نسمّيها، هي أكثر شيوعاً هنا عن دمـشق وصيدا». هذه الإفادة محض قذف وتشهير ولا شك. إنّ من قرؤوا لبـيرتون قد يقبلون إفـادتي إن اللواط والزنا والفسوق لا تُعـرف تقريباً في وسط الجزيرة العـربية. (المؤلف).

الأرض السعودية، وتكون الحالات التي تظهر عامّةً راجعة لا لتهابات حدثت لزوار بلاد مثل البصرة أو دمشق أو القاهرة، أو مكة أو المدينة.

لا ينبعي أن نتوقف إزاء محاضرته عن الخيول العربية، أو أمام المواقف المثيرة مع عبدالله الوريث المحتمل للعرش السعودي، والتي بلغت ذروتها في «هروبٍ بشقِّ الأنفس عن المدينة، واختباء لثلاثة أيام في الجوار، حتى تعدُّ العدّة للزحف الأخير على الأحساء وشواطئ الخليج العربي». ولعله أعطانا من خلال وصفه لهذا الأمر الدليل القاطع على أنّه ليس أهلاً للثقة.

كان ذلك اليوم هو ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٦٢م. وكان الشتاء قد حَطّ عصا ترحاله الآن، وهطلت أمطار غزيرة، لكن «لم يُبدِ أيّ من الأودية ميلاً لبلوغ البحر، وما كان ينبغي لها. إذ أنّ هذا الجزء من نجد تطوّقهُ سلسلة جبال طويق». هذا بلاشك افتتاح مُيَسَّر لرحلة تنحدر عبر وادي حنيفة الذي يتجه نحو الجنوب الشرقي، وهو سيبلغ البحر إن سالت به كَمِّيَّات كافية من الماء. وتحفّ بالوادي كل كتلة طويق من جهة الغرب -حسب روايته- وليس من جهة الشرق كما هو الحال. وفي هذا الجزء من الرحلة فإن بلجريف يربط نفسه بعقد تستعصي على الحل. لقد استغرقه الأمر كما يقول أربع ساعات ليبلغ منفوحة التي تقع في حوض الرياض نفسه، ويمكن الوصول إليها في نصف ساعة مع السيرالمتمهِّل. وبعد منفوحة لا يجد نفسه في وادي حنيفة كما ينبغي أن يفعل، ولكن في وادي السُلّيّ. ولا يذهب وادي حنيفة إلى الشرق أكثر من هذا، «وتكوِّن سلسلة الجبال المنخفضة المتعارضة التي قطعناها لتوّنا خطاً جغرافياً وحدودياً. وهذا يعني أنّ هذه «السلسلة العرضية» هي مصدر وادي حنيفة، وهذا يجعله -كما نوّهت من قبل-

يجري في الاتجاه المعاكس تماماً للاتجاه الذي يسير فيه. هذه السلسلة العرضية ليس لها وجـود بطبيعـة الحال، ووادي حنيفة يـنبع من الطرف الغربي لهضـبة طويق، ويجري منحـدراً من خلال الهضبـة، وبطول حافّتـها الشرقيـة لإقليم الخرج، ثمّ لمجرى تصريف السهباء.

أمّا وادي السّليْ الذي لم يجد فـيه «سوى قرية صغيرة ليـست ذات شأن» فهو في حقيقة الأمر ليست به قرى على الإطلاق. وهو يجعل هذا الوادي أيضاً يجري في الاتجاه المعاكس بعد أن يهبط من مصدرٍ وهمي في إقليم الحريق الوهمي أيضاً، ليجري في اتجاه الشمال. وينبع الوادي في حقيـقة الأمر من شمال الرياض ليقترن بوادي حنيفة قبل بلوغ إقليم الخرج بقليل.

يقع بلجريف في هذه الأخطاء رغم أنّه أفاد من الأيام التـي قضاها بلا عمل، بأن ارتقى «مرتفعات طويق الصـخرية الجيرية العالية في جانب الهـضبة الشرقي». والسبب وفـقاً لإفادته «الحـصول على فكرة أوضح عن البـلاد». ومن ذلك التوء المرتفع حصل على لمحة بعيدة «للجبال الزرقاء المسنَّنة للحريق في أقصى الجنوب»، والتي رآها مرة ثانية في مـرحلة لاحقة من رحلته بعد أن تخطّى السلمـية، حينها رأى «مشـهداً جنوبياً ممتـازاً لها»، «صرنا الآن قـبالتهـا رغم أنه كان يفـصلنا عنها شريط صحراوي. وكانت جبال الحريق سلسلةً من الجرانيت -فيما يبدو- تجري من الشرق للغرب، وهي سلسلةٌ مسننة ومنعزلة، طولها بالتقريب ستون ميلاً أو أكثر. وكان من المثير أيضاً أن نرى كيف أن جبل طويق يـنتهي فجأة -بل بحدّةٍ متناهية- في الصحراء وهو يهبط في تـعاقب سريع للدرجات الترسبيـة، وكان آخرها يهوي كحـدّ الشفـرة نحو القـفار الرملية». كـلُّ هذا بلا شك من وحي خيـال جامح. وليست هناك كلمة واحدة تحمل أيّ علاقة بالحقائق.

وفي النهـاية في يوم ٢٨ نوفمـبر (تشـرين الثاني)، انتـهت فتـرة الاختـباء، ويعوّض بلجريف الزمن الطـويل الذي أضاعه ليبلغ منفوحـة، عندما هرب لينجو بنفسه بسرعة كبيرة جداً، رغم أنه كان حينها في مأمن من مطارديه، وكانت ترافقه قافلة كبيرة الحجم نحو السلمية في الخرج، وبلغها في اليوم التالي، ولم ير الرجل أهميـة لأن يوضح للقارئ كيف أن قـافلة متجهـة للأحساء اخـتارت هذا الطريق الطويل الملتف كبـديل للطريق العام الذي يذهب للإقليم مباشـرة. وكانت المرحلة الثانية لـه هي آبار القاعيات التي تبـدو وهمية. وعندما واصلوا سيـرهم في اليوم التالي ضلّت القافلة الطريق في خضمٍّ «غطاء ثقيل من السديم يناسب إقليم سوراي بإنجلترا أكثـر من ملاءمته للجـزيرة العربية. لقد كان الضـباب كثيفـاً حقّاً». وفي النهاية وقفـوا« على آخر نتوءات طويق وأعلى ما بهـذا الجانب منها. وطويق ذلك الحائط الجـيري الذي يحدّ ويسند نجد من الجـانب الشرقي». ثم هبطوا للمسـتوى الأدنى للصحراء الشـرقية حيث وجدوا مـزيداً من الآبار، وهي فيما يبـدو وهمية أيضاً، سمّاها أويسط.

وواصلوا سيرهم ليلاً حيث تغيّرت طبيعة الصحراء لتسود الرمال تدريجياً« لقد كانت الدهناء العظيـمة[1] أو الصحـراء الحمراء التي تخـيف حتى الجـوّالة البدو، والتي لا يعبرها المسافرون العاديون بلا قلق وترقب تسوّغُهُ الحوادث القاتلة في كثير من الأحيـان». «كم هي خفيـضة رمالهـا، وكم هي نزويّة النسمات الـتي تشكلها وتعيـدُ تشكيلها كل يوم تلالٌ مضطربة وأودية، بحـيث لا تبقى آثار مسافـر سابق ليهتدي بها مسافرٌ لا حق، بـينما الحرارة الحارقة والضوء الساطع تنعكس على كلّ

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الثاني ص ١٣١، ١٣٢. (المؤلف).

أنحائهـا وتتطابق مع العطش والجفاف والنصب، وكلهـا تُربكُ وتحيّر المغامـر حتى يفقد شعوره بالاتجاه فيتخبّط على غـير هدىً ارتقاءً وهبوطاً في خضمّ قفار معزولة تصبح بعد قليل قبراً له. لقد لاقى الكثيـرون حتفهم بهذه الطريقة، حتى أنّ قوافل بكاملهـا ضاعت في الدهناء دون أن يُعـثر لهـا على أثر». هل يمكن أن يكون هذا وصف رجل عبر ذلك الحاجز الرملي بنفسه؟ وعـبره ليلاً مهتدياً بالنجوم؟ إن هذه الأحزمة الـرملية العريضة تصـبح لفترة تمتدّ شـهوراً كل عام ديار للبدو ينـصبون خيامـهم ويعيشون فيـها هم وقطعانهم وإبلهم. هذه الرمال تضمّ كل أسـرارالحياة الرعوية[1]، إذ لا يوجد مكان تتفـوّق أعشابه على أعشاب تلـك الطّيّات الرملية، ومن دونها تصبح الحياة الرعـوية للعرب شيئاً مستحـيلاً. ولا يسبب عبور الدهناء فزعاً لأيّ رجل. رغم هذا وجد بلجريف وحداة ركبه وسيلةً ليضلوا الطريق، وهو يعزو حـسن الطالع الذي عاد بهم لجادّة الطريق ثانيـة للتمرين الذي قام به مـلاكه الحارس وحادي ركبه (أبو عـيسى)، واستخدامه للقوة الكامنة في الطبـيعة البشرية والتي لا يمكن استدعاؤها إلاّ في ظروف خاصّة، ومن خلال تدريب طويل».

وبعد خروجهم من القفار الرملية توجهت القـافلة عبر صحراء الصمان الخالية الممتدة، حيث يَزِلُّ بلجريف ويخطئ حـيناً بعد حين دون أن تكون أخطاؤه كبيرة، حتى يبلغ الجـانب الآخر من وادي الفروق. ثم بدأ يشق «في حذر سلسـلة جبال الأحسـاء الساحلية، إذ يفـصل - هنا أيضاً- الصـحراء عن البحـر خطٌّ من التلال المسننة العاريـة التي تمرُّ تقريباً بطول كلِّ المحـيط الذي يلفُّ الجزيرة العـربية. وفي قبـالة وادي الفروق ترتفع التـلال - بناء على ملاحظاتي التـقديرية - لألف وأربع

(١) أبرز داوتي وبلنت شهادات كافية تدعم هذه الحقيقة. (المؤلف).

مـئة قـدم فوق سطح البـحر، ولأربع مـئـة قدم فـوق سطح الجانب الغـربي من الصحـراء التي هي نفسـها على ارتفاع ألف قـدم فوق سطح الساحـل». التعليق الأخير يـقارب الصواب، ولكنّ الباقي هراء تمامـاً كإفادته أنّ المكونات الأسـاسية «لجـبال الأحـسـاء من الجرانيت والحـجـارة الرملية مع قـليل من المروْ (الكوارتز) والبازلت». في حقيـقة الأمر تمتدّ من الجانب الغربي للدهناء وحـتى ساحل البحر الشرقي صـحراءٌ شاسعـة من الحجارة الجيـرية تنحدر هابطةً بألطف تدرّج دون أن يكون بها سوى هضاب صـغيرة وتلال على مسافات متـباعدة لتغيّر رتابة طبيـعتها العارية. ولكننا الآن على مـشارف الأحساء، ولا بدّ أن أقـتبس مقاطع مـن كتاب السيد هوجارث لأُمهّد الطريق لا نتـقادي لوصف بلجريف للإقليم الذي قضى فيه أسعد أسبوعين في كل الفترة التي أقامها بالجزيرة العربية.

يقول السـيد هوجـارث: «كان اليـسوعي[1] المتنكّر مـبتهـجاً بنجـاته من نجد الملتزمة، ووجـد في الأحساء تعاطفاً أكثـر، كما وجد بها وقت فراغ أكـبر مقارنة بسابقيه[2]، فقام بدراستها. ويصبح سرده هنا مليـئاً وحيّاً ويتضح فيه أنه لا يسعى لإخفاء نزعة شبه شرقية لرجل يرى القـاعدة الأساسية المؤثرة في الحياة هي مذهب اللذة أو السعادة». وعلى صـعيد أكثر جدّيّةً يعطـي بلجريف وصفاً تفصيليـاً ممتعاً للمدن والـواحة التي تضمـها. ويتـفق مع وصفـه للمكان، الوصفُ القليل الذي أعطاه سلفه سادلير من قبله، وخلفـاؤه بلي وزويمر. وبعد ثلاثين عاماً وجد زويمر الخارطة السورية للهفوف دقـيقةً جداً. يتحدث بلجريف عن تفاصـيل الحياة بنغمة حمـيمية قلَّ أن يتـصف بها أوربي في الشرق. ولا بد لنـا أن نعتمد على كـتاب

(١) كتاب هوجارث D.G.H ص ٢٣٥. (المؤلف).

(٢) كابتن ج فوستر سادلير الذي عبرالجزيرة العربية في عام ١٨١٨م. (المؤلف).

بلجريف في كثير من وصفه لجنوب نجد، كونه حجة لنا لأنه ليس هناك غيره، وفي الأحساء نعتمد عليه أكثر من اعتمادنا على الآخرين جميعهم. ولولا بلجريف لماعلمنا سوى النزر اليسير عن طبيعة الأرض وعن أهلها ولما فهم الناسُ من سبقوه أو لحقوه إلاّ يسيرا.

هذا تقريظ عظيم بالفعل، وعندما يصدر مثله من السيد هوجارث لا بدّ أن نتمهّل قليلاً قبل أن ندخل في جدل مع بلجريف في معركة اختار هو أرضها. ولكن كم يستحق بلجريف هذا الثناء إن نظرنا لوصفه للرحلات مجرّداً عن غطاء الحشو اللغوي الكثيف؟ يورد السيد هوجارث دعماً لهذا الثناء «القليل الذي أورده» ثلاثة أوربيين آخرون زاروا الإقليم. وصف سادلير الأحساء بأنها «تحتوي على بحيرات وينابيع ولكن ليس بها أنهار»، وعن الهفوف تحدّث عن «أطوال أسوارها الطينية وعن أعداد مقاتليها». ولا بدّ أن نعترف أنها مادة ضئيلة إذا ما قورنت بوصف بلجريف الكامل ذي التفاصيل. ولم يُضف أي من بلي أو زويمر شيئاً ذا بال لوصفه ولكن ملاحظات بلجريف حول خارطة[1] الهفوف أظهرت أنه مراقب غير مبال، وتستدعي ملاحظاته أن نسوق في تفسيرها شيئاً من إيضاح. الخارطة السورية تُظهر الهفوف كمدينة ذات شكل مستطيل تقريباً، بينما تحتل الكوت أو القلعة مساحة في أعلى الركن الأيسر في داخل إطار المدينة.

وينشأ سؤال حول اتجاهات الخارطة وهو أمر يعتمد عليه مبدأ دراستها دراسة جيدة. ولكن بلجريف في هذا الشأن يحدد موقفه بصورة قاطعة. وعندما اقترب من الهفوف ماراً عبر «بيوت الغوار البائسة»، ذكر أن العاصمة تبعد عنها

(١) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الثاني ص ١٤١. (المؤلف).

خمسة عشر ميلاً كاملة في اتجاه الشمال الشرقي. وكان الطريق الذي سلكه يتقدّم نحو المدينة من الجنوب، وهو يعلن دون لبس أنّه دخلها عبر البوابة الجنوبية، إذن فإنّ اتجاه الخارطة يمتد بين الشمال والجنوب كما يمكن للمرء أن يتوقع، ويحتل الكوت الركن الشمالي الغربي من المدينة. ورغم هذا فإنّه يقول في متن كتابه إنّ الكوت تقع في الركن الشمالي الشرقي منها. كان هذا التناقض الغريب قد لفت انتباه زويمر الذي لم يرَ ضرورة - فيما يبدو- للتفكير في اتجاهات امتداد المدينة. ولقد ندمت أنني لم أتجشّم عناء رسم الأجزاء المختلفة للمدينة وموقعها من بعضها البعض. ولكن يبدو لي - وهذا حديث من الذاكرة - أنّ الكوت يحتل الركن الشمالي الغربي للمكان. وعلى أيّ حال؟ لقد تقدمت نحو الهفوف من اتجاه شرق - ١٠ْ شمال[1]، ودخلتها عبر بوابة تقع بالتقريب بين الرقمين ١١ و ١٢ في أعلى الركن الأيمن لخارطة بلجريف. أمّا خرائطه التي أعدّها لمدن الجزيرة العربية - وعلينا أن نتذكّر أنّها أُعدّت من الذاكرة - ينقصها الشيء الكثير ولكنني ناقشت مخططه لمدينة الرياض نقاشاً كافياً من قبل[2]، والذي يحمل شبهاً لصيقاً لمخطط حائل رغم أن الأخير يوضح فجوة أقل حجماً عن تلك التي تُميّز الرياض، كما أنها إلى الجانب الغربي وليس في الشرقي.

إنّ ترتيب المتبعثر من المستندات والنصوص التي تدعم قبول وصف بلجريف للأحساء يُظهر أنّ هذا الوصف ليس كثيراً. وأبحث أنا في ذلك الوصف لأجد

---

(١) التقطت الصورة الفوتوغرافية الموجودة في ص٣٥٣ من الجزء الأول لهذا الكتاب في اتجاه ١٠ درجات جنوب الاتجاه الغربي. وتُرى في الصورة مئذنة جامع إبراهيم باشا في منطقة الكوت، التي تبدو هكذا أنها تحتل الجزء الأبعد أو الجزء الغربي من المدينة نحو الشمال. (المؤلف).

(٢) الجزء الأول، ص ١٣٥ . (المؤلف).

مسوّغاً لتـقريظ السيد هوجارث، لكن دون جدوى. مـاذا قال لنا إذن؟ لقد تركناه يسير بحذر في سلاسل الجبال لساحل الأحساء. ويقول «عندما خيّم الظلام، بلغنا أعلى القمم... حيث رأينا سهول الأحساء، ولكننا لم نستطع تمييز أيّ شيء نسبة لانتشـار الشعـاع الخادع للقمـر البازغ.. وضـربنا في الأرض، تارةً نرتقي وطوراً نهبط الممـرات والجروف شديدة التـحدّر حتى بلغنا منحـدراً لولبياً بجـانب الجبل الترسبـي المواجه للبحر. وهبطنا به مـسافة ألف قدم أو نحـو ذلك، وبلغنا بعدها مستوى الأحساء المنخفض»[1].

استنكفـوا عن الاستجـابة للإغراء بالتوقـف في «بيوت قريبـة من الغوار، في سطح الممر وكـذلك في قرية شـعبة على بعـد حوالي خمـسة أميـال عن يميننا». وواصلوا المسير للهفوف. ثم يعطينا عن المدينة كثـيراً من التفاصيل الممتازة، ولكن ليس من دون أخطاء فادحـة، وكثير من الإسقـاط. ولكنه أبدع في وصف المنطقة المحيطة التي زارها راكبـاً «حماراً مزوّداً بسرجٍ جانبي، إذ أن السـروج الجانبية هي السائدة في الأحساء لكلٍّ راكبي الحمير، رجالاً كانوا أم نساء».

«عندما استدرنا ناحية الغرب[2]»، هكذى يروي لنا «وجدنا أمامنا عدداً كبيراً من المجاري المائية.. ونباتات شبيهـة بالنباتات الهندية، وتبدو غريبة في هذا الجزء من الجزيرة العربية... تمتدّ سلسلة الجبال لمسـافة مئة ميل على أقل تقدير في اتجاه الشمال. إذن دعونا نتّجـه جانباً إلى حقول معشبة لنـرى ستة من الجاموس يبللون جلودهم القبيـحة في بركة، ودعونا نشرب قليلاً من المصـدر الذي يغذّي البركة.

---

(١) كتاب بلجريف .W.G.P الجزء الثاني ص ١٣٧. (المؤلف).

(٢) كتاب بلجريف W.G.P الجزء الثاني ص١٥٣. (المؤلف).

ولكن قف! إنّ المياه دافئة!! إنها تقريباً ساخنة، لا تندهش.. إن مصادر ينابيع وآبار الأحساء مثل هذه أو هي قريبة منها، وفي بعضها لا يستطيع المرء أن يغمس يده فيها.... منتجات الأحساء كثيرة ومتنوعة، وتتغيّر هنا رتابة نباتات الجزيرة العربية التي يتعاقب فيها النخيل والأثل، فتظهر هنا نباتات أخرى. الببايا (دُبّاء الهند) وهي معروفة أكثر في الأجزاء الشرقية من شبه الجزيرة[1]، إنّها توجد هنا أيضاً ولكنها قصيرة النمو، وتوجد معها أشجار أخرى[2] معروفة في الساحل من كتش حتى بومباي. تزرع هنا أيضاً شجرة النيلة (نيلج) ولكن ليس بكميات تجارية.. ويزرع أيضاً في العادة قصب السكر ولكن ليس لاستخلاص السكر وفقاً لتصوّري.. وتغطّي السهل بالتقريب كل البقوليات والغلال ما عدا الشعير (على الأقل لم أره مزروعاً ولم أسمع أنهم يزرعونه). انتبه لهذه الملاحظة، لا يُزرع شعير في هذه الجنة الأرضية.

هذا هو وصف بلجريف الهيكلي للأحساء، ولكن أين هذا من الحقائق؟ لسوء طالع بلجريف فإنّ سلسلة الجبال الساحلية بالأحساء قد اختفت من الوجود، وذهب معها المنحدر اللولبي الطويل في الجانب الترسبي من الجبال الذي يقود إلى القرى والقرى الصغيرة التي تسكن في جانب الجبل. واختفت أيضاً معظم المنتجات المختلفة التي كان ينتجها الإقليم، ولكن لم يصب أرضها العقم إذ أنَّ

---

(١) أي الهند. (المؤلف).

(٢) عن هذه الأشجار هو يعدنا بقائمة في الفصل اللاحق، أثناء وصفه لساحل باطينة (الجزء الثاني، ص٣٢٧). وتحتوي القائمة على المانجو وجوز الهند والقوقل (الكوتل) والجاكية والبن واليام والجوز والتفاح... إلخ ولكنه لا يوضح ما وجده بالأحساء من هذه القائمة. في الحقيقة لا يوجد شيء هناك. (المؤلف).

الشعير ينمو بوفرة بعد أن توقف إنتاج البيايا (دبّاء الهند)، وقصب السكر، وشجرة النيلة. ومصادر الينابيع ليست حارقة الآن فهي دافئة أو معتدلة البرودة أو باردة. وأخيراً فإنّ ما يُورث الحزن أنّ الجاموس لم يعد يتمرّغ في وحل البرك إذ أنّه قد انقرض. لا يستطيع بلجريف أن يُعزو لِزلّة القلم ذكره لهذه الحيوانات إذ أنه ذكر في مناسبتين سابقتين في سرده أنّها لا توجد في القصيم ووسط الجزيرة العربية[1] وهذا صحيح.

ورغم أنَّ كل هذا سيّئ إلاّ أنّه ليس كل شيء. إن كانت هناك نقطة واحدة دون غيرها يُتوقع لبلجريف أن يتحدث عنها بدقة ودون أخطاء، أو كان أمامه مجال واحد يُفترض أن يتطرق في وصفه لأدقِّ التفاصيل فهو مجال الحركة السلفية الدينية التي كان يحمل ضدها تحيّزاً حذراً، وكان يعرف تماماً وبوضوح كل تجلِّياتها. ورغم هذا فهو يقول في وصفه لمنطقة الكوت: «هنا[2] أيضاً نموذج لمسجد تقليدي حيث يتم كل شيء وفقاً للنظام السعودي، وهنا يقيم المطوعون الذين يُرسل بهم من الرياض». هل يمكن أن يكون قد رأى بأمّ عينيه المئذنة المهيبة والقبة البديعة لجامع إبراهيم باشا الكبير[3]، أجمل معلم معماري في كل وسط وشرق الجزيرة العربية، وأكثر معالم المدينة مخالفةً للنظم السعودية، وهو الذي يركّز في العبارة نفسها على مخالفة طبيعة المدينة للتقاليد السعودية.

---

(١) كتاب بالجريف .W.G.P الجزء الأول ٣١٥ وص ٤٥١. (المؤلف).

(٢) كتاب بالجريف W.G.P الجزء الثاني ص ١٥٠. (المؤلف).

(٣) نسبة الجامع إلى إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا الوالي العثماني على مصر، بحاجة إلى مراجعة لأن المعروف تاريخياً أن نسبة الجامع إلى الوالي السعودي على الأحساء في الدولة السعودية الأولى واسمه إبراهيم بن عفيصان، الذي ينسب إليه قيامه ببعض التحسينات التي أضيفت إليه، أما تاريخ بنائه فهو سنة ٩٧٤هـ. (المراجعون).

بعد وقت قصير رحل بلجريف من الهفوف إلى خارج الجزيرة العربية متخذاً طريقاً لم أسلكه أنا، وهنا أتركه وشأنه. وأترك لمن يهمهم الأمر أن يحكموا له أو عليه بناءً على البيانات التي بين أيديهم. لقد بدأتُ محاولاً إثبات أن بلجريف لم يسافر من الرياض للخرفة، وجاءني الرد: قد يكون بنفس القدر من السهولة أن نقول أنّه لم يرَ بريدة قط. لا بأس وليكن الأمر كذلك. إنّ توسيع هذه الدائرة لم يكن من اختياري، ولكني في معظم الوقت تركت بلجريف يروي قصته بكلماته. أليس هناك مسوّغ كافٍ لإعادة النظر في الحكم الذي أصدره السيد هوجارث عن «البحث عن تبرير بديل لمبالغاته الكثيرة وإغفاله للكثير وبياناته الكاذبة». إنّ الاعتبارات التي بنى عليها هوجارث حكمه ذلك لم تعد صامدة، ورغم أننا «لا نطمع في أن نقرأ أسرار الكلية اليسوعية أو اللاهوت، لكن يحقّ لنا أن نتساءل ليس فقط إن كان بلجريف قد قام برحلة خاطفة للأفلاج، ولكن السؤال ما القدر الذي رآه من عمق الجزيرة العربية».

إن كان يمكن إثبات زيارة بالجريف لبريدة والرياض والأحساء بما لا يدع مجالاً للشك، فلا بأس من أن نضمَّ إليها الرحلة الصغيرة للأفلاج، ولكننا بالقطع نكون حينها في حلٍّ من تصديق حديثه، أي حديث «رجل إنجليزي، رغم أنه رحّالة»، عن مقدار إنجازاته، ويحقّ لنا أن نطالب بمعلومات إضافية أكثر إقناعاً نبني على ضوئها حكمنا، وليس على المعلومات الواردة في سرده الذي سوّد به جزئيْ كتابه.

كان استقبال بلجريف في بلده بارداً [1] بعد عودته من رحلته العظيمة،

(١) كتاب هوجارث .D.G.H ص ٣٠٦. (المؤلف).

وشكك رجال علم عـمّا أورده عن الهيدروغـرافيا (علم وصف الميـاه) في الجزيرة العربية، ولكن كانت المعلومات عن الجزيرة العـربية آنئذٍ محدودة. لذا سجّل نصراً سهـلاً -ولكنه بالطبع لايسـتحـقه- وفي مجـادلة مع ج.ب. بادجـر حول هذه النقطة. ومن الغريب أنّ بادجـر لم يبذل جهداً في تلك الأيّام للحـصول على أدلّة مستقلة (من مـصادر أخرى) عن الأشياء التي حدثت لبلجـريف، على سبيل المثال بين الوقت الذي غادر فيه الجزيرة العربية والوقت الذي عاد فيه إلى دمشق. وليس من الممكن جـــمع أدلّة عن هذا الأمـر الآن بعـد مـضيّ كـل هذا الوقت إلاّ من سجلات الكلية اليسوعية بسـوريا، ولكن نشر ورقتي مع تعليقات السيد هوجارث عليها بمجلة الجمـعية الجغرافية الملـكية قد أظهرت شيئاً من مـستور الماضي. ولقد أبدى ضابط بريطاني[1] كان قد عمل في مسـقط في الـسبعينات من القرن الماضي -وقدّم خدمات جليلة للجغرافيا العربيّة- شكوكه حول زيارة بلجريف لعمان.

وأقدّم هذا الدليل بأن أورد النص الكامل لرأى السير ويليام هاقارد الذي طرحه في اجتماع[2] الجمعية الجغرافية الملكيـة أثناء المناقشة التي أعقبت قراءة ورقتي الثانية حول الجزيرة العربية. قال السير ويليام هاقارد: «لم أتمكن لسوء الطالع من الاستماع لمحاضـرة السيد فـيلبي الأخيرة، ولكنني قـرأتها باهتـمام بالغ، ورأيت فيـها بعض الملاحظات حول احـتمال عدم صـدق بلجريف. وإنَّه لمن الضروري جـداً أن يسوّى هذا الأمر في أيٍّ من الاتجاهين، ولعلّ الكلمـات القليلة التي سأقولها الآن ستـتجه

(١) الكولونيل الراحل س.ب. مايلز. (المؤلف).

(٢) في ٣ مايو (آيار) ١٩٢٠م، راجع مجلة الجمعيـة الجغرافية الملكية (J.R.G.S)، ديسمبر (كانون الأول) ص٤٦٦. (المؤلف).

بهذا الأمر قليلاً نحو الحسم. لقد كان قدري أن ألتقى ببلجريف عدَّة مرات أثناء مسيرة حياتي. التقيت به عندما كان كاهناً يسوعياً في دَيْر على نهر الراين. وذهبت إليه مع والدي، وأذكر - وأنا صبي حينها- أنّي فكرّت في أن مناقشته كانت خفيفة وغير جادّة مقارنةً بما يتوقّع المرء أن يسمعه من كاهن يسوعي، وهو مجتمع ارتبط في ذهني بالجديّة والصرامة، ولقد تولَّد في داخلي إحساس في وقت لاحق أنَّ الفكرة التي كنت قد كونتها عنه في ذلك الزمان القديم كانت فيما يبدو صحيحة.

وذهبت إلى الخليج الفارسي قبل أربعين عاماً وكنت قبلها قد قرأتُ كتابه عن الجزيرة العربية (وهو بالمناسبة كان قد أخبرني والدي أنّه كان بالفعل يكتبه في الديْر عندما رأيناه بعد عودته من الجزيرة العربية)، ولا أدري إن كان ما انطبع في ذهني عن شخصيته أم لسبب آخر، إلاّ أنني عندما قرأته أحسست بأنّ لي شكوكاً حول دقَّته. وعلى أي حال عندما وجدت نفسي في مسقط مرّةً - في طريقي من بومباي إلى بلاد فارس - قضيت اليوم مع الرائد- كما كان حينها والكولونيل لاحقاً- مايلز، وهو رجل معروف مبجّلٌ محترم، وهو المندوب السامي والقنصل العام. وسألته إن كان يعرف بلجريف، وأجاب: «بالطبع نعم، أنا أعرف بلجريف جيداً» وسألته: أرجوك أن تخبرني عن رأيك في صِحّة كتابه فأجاب: «حسناً، أنا لا أستطيع أن أقول شيئاً عن بقية الجزيرة العربية التي لم أزرها، وعن تلك المناطق ليس لي رأي.

ولكن.. يمكنني أن أُدلي برأيٍ وأكثر من رأي عمّا قاله عن مقاطعتي -تلك كانت مقاطعة أو مملكة مسقط-، ليس في حديثه كلمة واحدة صادقة، وسافرت أنا في جميع أنحاء هذه المقاطعة. ويتحدث بلجريف عن بساتين نخيل حيث

لا توجد، وعن مدن وقرى كلها من نسج الخيال، وختم حديثه قائلاً: «إنّه يتحدث عن طريق يرتقي تلك الصخرة» وأشار إلى جرف عظيم يواجه ميناء مسقط، هذا كل ما أستطيع قوله إنّها بيِّنةٌ سماعيّة، ولكن أي إنسان تعرَّف على الكولونيل مايلز يعرف تماماً أنه رجل لا يستطيع أحدٌ أن يطعن في صدقه. وما قاله يمكن أن يُؤخذ كدليل جيّد على أنّه كانت هناك أخطاء فادحة في وصف بلجريف للجزيرة العربية، الوصف الذي سمعت كثيراً من النقاش حول إمكانية التعويل عليه».